القسم الاول

الفصل الاول

الصحراء

ليس للحياة اهمية عظمى فى (كوبى). فالنجود الشامخة مصفع الرياح تناطح السحاب، والبحيرات والقصب نابت على اجرافها تؤمها ذوات الجناح الكواسر النازحة وهى فى طريقها الى البوادى الجليدية . وبحيرة (بائى كوول) الكبرى يزورها كل شياطين السماء وعفاريتها ، وفى ليالى اواسط الشتاء الصافية تبثق اشعة الانوار الشمالية وتأفل وراء الافق.

وابناء هذه الناحية الشمالية من (كوبى) لم يخشوشنوا بالمكابدات. فهم ولدوا لها، فأن فطموا من ثدى امهاتهم الى ما تدره الافراس من الحليب، عليهم ان يكدوا ليعيشوا.

والمقاعد القريبة من كانون حيمة العائلة لا يجلس عليها الا المقاتلون الفتيان والضيوف. اما النساء وان كان لهن ان يجلسن فى الجانب الايسر، ولكن على بعد. واما الصبيان والبنات فلهم ان يجلسوا حيث يتيسر لهم الجلوس.

اما المأكل: ففى الربيع عندما تدر ثدى الافراس وضروع الابقار بلبانها، فالكل مكتف؛ وتسمن الاغنام ايضا، ويتكاثر القنيص فيأتى قناصو العشيرة بظبى او قد يأتون بدب. ـ ولا يأتون بالحيوانات الهزيلة ذات الافراء كالثعلب والفنك والسمور ـ فيطهى القنيص وينقل الى الصحن ويؤكل اذ يتقدم الرجال الاقوياء البنية فيلتهمون الوجبة الاولى منه، ثم يتسلم الصحن الشيوخ والنساء. اما الاطفال فعليهم ان يتطاحنوا على العظام وفتات اللحم، ولا يبقى الا النزر اليسير الى الكلاب.

واما في الشتاء، عندما يهزل القطيع فتسوء حالة الاطفال. ولا تجد الحليب عند ذاك الا وهو قميز ـ والقميز حليب افراس يوضع في القرب فيخض ويخمر. وهو يغذي الطفل ويسكره قليلا وهو في الثالثة او الرابعة من عمره، هذا اذا دبر أمره فاستجدى او سرق القليل منه. ولقلة اللحم فقد اعتادوا على تناول الدخن المغلى لالهاء البطون الخاوية.

وآخر ايام الشتاء هي انكد ايام الصغار جميعا، اذ لا تجزر الخراف والاغنام، والا صغرت القطعان كثيرا. وفي مثل هذه الايام يغير عادة محاربو العشيرة على ما تخزنه العشيرة الاخرى من المؤن الاحتياطية، فيرجعون ومعهم أسلابهم من الانعام والخيل. وقد تعلم الاولاد ان يؤلفوا منهم جماعات قنص وصيد، فيتعقبوا آثار الكلاب والارانب وبايديهم الهراوات والسهام المثلومة. كما تعلموا الركوب ايضا، ولكن ركوب الغنم لا الخيل، والتمسك بالجز لا المعارف.

والجلد اول ارث ورثه جنكيزخان. وقد سمي بـ(تيموجين) (*) اذ قد ولد عندما كان ابوه غائبا في غارة على عدو له اسمه تيموجينا. وقد واتى الحظ الوالد في البيت وفي الغارة. فانه أسر عدوه واصبح والدا ايضا. ولما رجع الى داره سمى ولده باسم عدوه الاسير.

وداره كانت خيمة من لباد مثبت على هيكل من العماد المشبكة بالعوارض من الاعواد، وفي اعلاها كوة يتصاعد الدخان منها. وقد طليت بالنورة البيضاء وزينت بالرسوم وهي خيمة غريبة الطراز. وهذا اليورت ينقلونه ويطوفون ويجولون به من مرج الى مرج، ومن برية معشوشبة الى اخرى وهو فوق عجلة يسحبها اثنا عشر ثورا او اكثر. وان شكله المقبب يجعله مريحا ومفيدا اذ يقاوم الريح العاصفة. كما يمكن تقويضه عندما تقتضيه الظروف. ولكل من نساء الرؤساء المتزوجات ـ ووالد (تيموجين) كان

(*) كلمة (تيموشين Temuchin) تعني «اجود الفولاذ» ـ(تيمورجي Tumur-Ji). اما للفظ «تاي موجين T'ie Mou Jen» الصينية فمعنا يختلف اختلافا كليا وهو «رجل الارض الامثل».

رئيسا ـ(يورت) مزين من هذه الخيام يعيش اولادهن فيه. وعلى البنات رعاية اليورت، ومشـــاهدة النـار دائمة الاشتعـال فى الموقـد الحجرى تحـت تلك الكوة والدخان يتصاعد منها. وقد ترى اختا من اخوات (تيموجين) واقفة على مصطبة العجلة امام رفراف مدخلها وهى تسوق الثيران عندما ينتقل الـ (يورت). وقد يشد قوس العجلة الواحدة الى محور الاخرى وهكذا تسير ودواليبها تصر فوق المراعى المنبسطة حيث لا اثر للشجر، ولا اثر لاوطأ الروابى.

وفى اليورت تحفظ خزائن العائلة وهى بسط من (بخارى) او (كابل) وقد تكون مسلوبة من قافلة من القوافل، وصناديق مملوءة بحاجيات النساء كالملابس الحريرية؛ وقد اقتنيت بالمقايضة من تاجر عربى بارع، والفضض المطعمة. وأهم كل هذه، الاسلحة المعلقة فوق الجدران كالسيوف التركية المقوسة، والرماح، وعلب اقواس من العاج او قصب البامبو، واسهم متباينة الطول والثقل. وقد نجد ايضا ترسا مدورا جلديا صلبا مصقولا. وكل هذه ايضا قد سلبت او اشتريت وقد تناولتها الايدى وقلبتها مع طوالع الحروب.

وعاتق تيموجين ـ جنكيزخان ـ مثقل بالواجبات العديدة. فعلى اولاد العائلة ان يصطادوا الاسماك من الجداول والانهار التى يمرون بها وهم يتنقلون فى عجلاتهم من مراعى الصيف الى مراعى الشتاء. وهم مسئولون عن قطعان الخيل، وعليهم ان يركبوا ويعقبوا الدواب الضايعة، وان يبحثوا عن المراعى الحديثة. وهم يراقبون الآفاق ايضا ازاء المغيرين وقد يقضون الليالى الطوال مستفرشين الثلوج، دون ان يوقدوا نارا. وقد تدعوهم المحتمات ان لا يرخوا احزمة السروج او يرفعوها عن ظهور الجياد عدة ايام وان لا يأكلوا الطعام المطهى لثلاثة او اربعة ايام، بل قد لا يجدون ما يأكلون.

واذا تيسر لهم لحم الاغنام او الجياد اولموا بعضهم لبعض وعوضوا عن ايام الطوى، وخزنوا الكثير منه لايام القحط والجوع. وان ارادوا التسلية تسابقوا على الخيل فأبعدوا عشرين ميلا فى الفلاة ذهابا وايابا او تصارعوا صراعا تتكسر فيه العظام جزافا.

ويمتاز (تيموجين) بقوة البنية العظمى، وبمقدرته على الابداع، وهذه هي طريقة اخرى لتكييف نفسه مع الحادثات. لقد اصبح مجليا بين المصارعين بالرغم من نحافة بنيته وهو يحسن رشق الاسهم رشقا فائقا، ولكنه ليس كأخيه (كاس سار) المنعوت برجل السهم. هذا، و(كاس سار) يخاف (تيموجين).

تحالف الاخوان أزاء اخوانهما من ابيهما الاشداء. والحادث الاول الذى يذكر عن (تيموجين) قتله احد اخوته هؤلاء لسرقته سمكة منه. والظاهر، انه ليس للرحمة من محل فى قلوب هؤلاء الفتيان الرحل. اما العقاب فكان عندهم عهدا.

و(تيموجين) اصبح مدركا بان اخذ الثار خير من غل الصبيان وحقدهم. وكانت امه (هوولەن) جميلة حسناء ولجمالها وحسنها خطفها والده من عشيرة مجاورة وهى فى طريقها الى خيمة العرس للقاء زوجها المنتظر.

و (هوولەن) الفطنة العنيدة استسلمت للامر بعد قليل من العويل. ولكن كل من فى البيت كان يعلم بحلول يوم سيثأر به رجال من قبيلتها. وفى الليل عند نار الروث المتأججة يصغى (تيموجين) الى قصص المنشدين؛ الرجال الشيوخ المتنقلين من خيمة الى اخرى وبيدهم ربابهم المنفردة الوتر وهم يتغنون مرتلين امجاد اجداد عشيرة من العشائر وابطالها.

لقد كان مؤمنا بقوته، وبحقه فى الزعامة. ألم يكن سليل (يەسوكائى) البطل خان (ياك كا) او المغول العظماء؛ سيد اربعين الف خيمة؟

فمن قصص المنشدين علم انه سليل بيت عريق، بيت الـ(بوورشى كوون)، ذوى العيون الزرق. وكذلك اصغى الى قصص جده، كابل خان الذى جر امبراطور (كاثاى) الصين ـ خيتاى ـ (٢) من ذقنه، والذى كان عقابه على ذلك موته مسموما. وقد علم ايضا ان المتآخى مع والده كان (طوغرول خان) الـ(قارا ايت)ى، وهى اقوى عشائر (كوبى) الرحاله، والذى ذاعت قصصه فى أوروبا باسم (برەستەرجون) (٣) الاسيوى.

ولكن فى تلك الاوان كان نظر (تيموجين) يقف عند آفاق مراعى عشيرته (ياك كا) المغول.

قال احد العرافة العقلاء الى الولد «اننا لم نكن جزءا من الف من (كاثاى)، والسبب الاوحد الذى مكننا من مكافحتها هو بداوتنا. فأننا نحمل مؤننا معنا. ولدينا الخبرة الكافية فى اساليبنا فى الحرب. فان استطعنا غزونا، وان لم نستطع اختفينا. وان شرعنا بتشييد المدن وغيرنا عوائدنا القديمة، فلا يبقى لنا مجال للرغد. هذا والاديار والمعابد تورث نعومة الطباع والاخلاق. ولا يسود البشر الا الخشن المحارب (*).

وبعد ان قضى (تيموجين) تلمذته فى رعاية الانعام سمح له ان يستصحب (يەسوكائى) راكبا. و(تيموجين) الفتى كان جميل الطلعة ولكنه كان اكثر بروزا فى قوة بدنه. وكان ميالا لكل منظر جميل، وجمال منظر، وصريحا فى الرأى.

ويظهر انه كان طويل القامة، بمنكبين عاليين، اما بشرته فبيضاء ملفوحة وعيناه متباعدتان، غير منحرفتين، تعلوهما جبهة منحدرة. وهما خضراوان شهلاوان فى قرحتيهما وسوداوان بقرتيهما. وعلى ظهره تتدلى جدائل شعره الاحمر الاشهب. وان تكلم، تكلم قليلا. ولا يتكلم الا بعد التأمل والتدبر. وهو صعب الانقياد فى مزاجه. ولكنه موهوب فى سرعة التعارف.

وهيامه كان فوريا كهيام والده. فبينما كان الابن والاب يقضيان ليلة من الليالى فى خيمة محارب اجنبى غريب، خلبت نظره فتاة الخيمة فسأل من فوره (يەسوكائى) فيما اذا يمكن له طلب يد الفتاة. فمانعه والده قائلا: «انها لا تزال صبية».

فأجاب (تيموجين) «وعندما تبلغ أشدها ستصبح لى زوجة».

تأمل (يەسوكائى) فى الصبية. وكانت لا تزال فى التاسعة من عمرها، وهى على جمال باهر. و (بوورتائى) هذه، او العيون الرمادية يرجع اسمها الى جد العشيرة الخرافى.

(*) يجب ان لا يبرح عن البال بان المغول لم يكونوا عرقا كالعرق الصينى البحت. فهم تسللوا من الـ(تەن كوسى) او من عرق غير اصلى وقد اختلطت فيهم الدماء الايرانية والتركية ـ واسم هذا القوم فى يومنا هذا العرق الاورالى ـ الالتائى كى. والمغول كانوا بدو آسيا العليا الذين تعتهم الاعرق بالسيثيين Scythians.

اما والد الفتاة، فقال «ان الصبية صغيرة». ولكنه كان مرتاحا في سره الى رغبة المغولي فيها، ثم اردف وقال «ولكن، بوسعك ان تعيد عليها نظرتك». ثم انصاع الى رغبة (تيموجين) فخاطب والده قائلا «ان لابنك وجها جميلا وعينين لامعتين».

وهكذا تمت الصفقة في اليوم الثاني. فرحل (يهسوكائي) خان المغول من الخيمة تاركا (تيموجين) فيها ليزداد تعرفا على عروسته المقبلة ووالدها.

وبعد ايام قلائل جاء مغولي حضرا على جواده ناعيا (يهسوكائي) الذي بات في خيمة لاعدائه واسقي السم فيها وهو الآن على فراش الموت يرغب في رؤية (تيموجين)، فهب الولد وكان في الثالثة عشرة من عمره للعودة بالسرعة التي يستطيعها الجواد الى الـ(اوردو) او قرية الخيام، ولكنه وجد والده قد مات.

وقد حدث ادهى من ذلك وهو بعيد. فأن وجود اورجالات القبيلة البارزين بحثوا في شأنهم، فافترق ثلثهم من راية الرئيس ورحلوا للالتجاء الى حماية حماة آخرين، اذ خشوا تسليم زمام امورهم وشؤون عوائلهم ومواشيهم الى صبي غر لا خبرة وتجربة له.

«لقد نضب الماء الغزير، وتحطمت الصخرة الصماء وما نفعنا من امرأة واولادها». هكذا كانوا يقولون.

أما (هوولهن) الحكيمة الباسلة فقد بذلت ما باستطاعتها للحيلولة دون تفرق القبيلة. فقد حملت الراية المؤلفة من تسعة ذيول من اذيال الياق (٤) وركبت جوادها وطاردت المنشقين وترافعت معهم في الامر فأقنعت بعض البيوت على الرجوع بقطعانهم وعجلاتهم.

والآن وقد جلس (تيموجين) على جلد الجواد الابيض، كخان للمغول الـ(ياسا كا) ولم يكن حوله الا شتات القبيلة. وهو الآن يجابه الحقيقة المرة وهي : ان اعداء المغول ذوي الثار سينتهزون موت (يهسوكائي) فرصة للانتقام من ولده.

الفصل الثانى

الكر المعيشى

كان للمغول الـ(ياك كا) نوع من السيادة المطلقة فى (كوبى) الشمالية، على عهد (كابل خان) جد (تيموجين) الاكبر وعلى عهد والده (يه‌سوكائى)• ولانهم مغول كان من الامور البديهية ان يخصوا انفسهم بأجود المراعى الممتدة من بحيرة (بائى كوول) شرقا الى سلسلة جبال (خين كان) كما هى معروفة فى يومنا هذا على حدود (مانشوريا) الحديثة•

وكانت هذه المراعى قبلة الانظار لوقوعها فى شمال رمال (كوبى) الزاخرة بين واديى النهرين الصغيرين (كه‌روولون) و(اونون) الخصبين، حيث التلال مكسوة باشجار البتولا والشربين، وحيث الصيد وافر والمياه غزيرة لذوبان الثلوج الاخيره وهذه الحالات معلومة حق العلم لدى القبائل التى كانت تحت رعاية المغول، والتى تتهيأ الآن للاستيلاء على ممتلكات (تيموجين) الصبى الذى يبلغ الثالثة عشرة من عمره•

فلتلك الاماكن فى نفوس القبائل الرحالة قيمة لا تقدر• ففيها المراعى الخصبة، وبردها ليس بالقارص شتاء، وفيها المواشى التى يستغلونها لضرورياتهم الحياتية كما يستفيدون من شعرها لصنع اللباد منه ، وفتل اواصر الخيام• وفيها ايضا عظام يصنعون منها نبال السهم، وجلود لعدد الخيل والسروج ولزقاق القميز •

والظاهر ان (تيموجين) قد تضعضعت عزيمته، وانهزم اذ لا قبل له على درء الكارثة المقبلة• فأمراؤه الاقطاعيون، اذا صح التعبير عنهم، مترددون، وليس فيهم الرغبة القوية لدفع العشر من الماشية الى الصبى• وقد تبعثروا فى انحاء التلال يحرسون مواشيهم ازاء الذئاب والعصابات الصغيرة المغيرة التى لا بد من ظهورها فى اوائل الربيع•

والواقع انه لم ينهزم، بل يذكر لنا التأريخ انه بكى زمنا فى خيمته وحيدا، ثم نهض مثقلا بواجب الزعامة. وكان عليه ان يقوم بأود اخوته الصغار واخواته واخيه من ابيه الذى ترك عنده ليرعاه . وقبل كل ذلك، كانت لديه امه التى كانت تعلم علم اليقين ان الكارثة المحتمة لابد وان تؤدى بابنها البكر.

اجل، انها كارثة محتمة اذ ان (تارغووتائى) احد المحاربين وسليل الـ(بوورجى كوون) اى الرجال ذووى العيون الشهل صرح مدعيا انه سيد (كوبى) الشمالية الاوحد. و(تارغووتائى) هذا رئيس الـ(تائيدجووت) الاعداء الموتورين للمغول. وقد استهدف الآن (تارغووتائى) الذى استمال اكثر رجال قبيلة (تيموجين) للانضمام تحت لوائه، اغتيال خان المغول الفتى كالذئب العنيد الساعى وراء حمل ليفترسه بغية التسلط على القطيع باجمعه.

أغار (تارغووتائى) ولم ينذر القوم بغارته. فحملت حشود الفرسان على قرية المغول الخيمية واستدار البعض منها جانبا لسلب القطعان السائبة فى مراعيها. اما (تارغووتائى) فقد قصد بشخصه الخيمة التى يعلوها اللواء.

اما (تيموجين) واخوته فهربوا من غارة المغيرين. وكان (كاس سار) رجل السهام العنيد يكر بين الفينة والاخرى فيرشق اعداءه ببعض السهام . اما (هوولەن) فقاست مضض العيش وعذابه. غير ان (تارغووتائى) ما كان يقصد الا (تيموجين).

هكذا بدأت الغارة والـ(تائيدجووت) يطاردون الفتيان الاحداث، ولكن المغيرين لم يتسرعوا فى المطاردة كثيرا. فاثر المنهزمين ما زال حديثا بينا. وقد اعتادت تلك العشائر ان تركب الخيل اياما اذا اقتضى الامر. فأذا لم يتيسر لـ(تيموجين) مطية غير تعبة فأنهم مدركوه لا محالة.

والفتيان الاحداث ساقتهم الغريزة الى ملاجىء الاغوار للاختفاء بين الاشجار. فترجلوا حينا لقلع الاشجار ورميها على السبيل الضيق وجعلها حسائك لاعاقة المطاردين. وعند نور الغسق تفرقوا فالتجأ الاخوة الصغار والبنات الى غار. و (كاس سار) انحاد عن طريقه، أما (تيموجين) فسار الى جبل اخفاه.

وفي هذا الجبل توارى عن المطاردين عدة ايام، الى ان اضناه الجوع وجدد عزيمته فاستمات على المجازفة والاندفاع بجواده الى من كان في المرصاد له من الـ(تائيدجووت)، فالتقضوه بانظارهم ثم التقفوه بسواعدهم وقادوه اسيرا الى (تارغووتائي)، فامر أن يطوقوا عنقه بالـ(قانغ)، وهو طوق خشبي يستند على المنكبين ويحبس معصمي السجين ممتدة الى الجانبين . قيد (تيموجين) موثقا بهذا الوثاق، ورجع المحاربون الى مراعيهم وفي مقدمتهم ما سلبوه من القطعان. وبقي (تيموجين) اسيرا مطوقا لا نصير له ينصره حتى ان رحل الغزاة لغزو آخر فتركوه وحيدا بحراسة حارس واحد. وقد خيم الظلام على المعسكر. وللمغولي الفتى نفسية لا تغفل عن مثل هذه الفرصة للهروب.

وفي عتمة الخيمة، لطم راس حارسه بطرف طوقه، فأرداه فاقدا الشعور. وخرج يعدو من الخيمة، فلقي القمر وقد أشع مضيئا بعض انحاء الغابة التي اكتنفت بالخيام، فاسرع متسكعا بين الادغال نحو نهر عبرود قبل يوم. ودخل الماء عندما سمع أصوات مطارديه من ورائه وغطس فيه عند الشاطئ بين الحسك الا راسه.

قبع هكذا في مغطسه وهو يشاهد فرسان الـ(تائيدجووت) يفتشون الشواطئ باحثين عنه. وكانه لاحظ احد المحاربين وقد عثر عليه فأرتاب وتردد ورجع دون ان يفتك او يغدر به.

و(تيموجين) وهو في طوقه، لاحيلة له على أمره كما كان في سجنه. فالبصيرة والجرأة تعجزان عن ادراك ما عسى ان يصنعه، او ما سنعه. انه خرج من النهر وعقب مطارديه راجعا الى المعسكر فتسلل الى (بورت) المحارب الذي لاحظ انه رآه بين الحسك ولم يخبر عنه ويغدر به . وقد تبين ان هذا كان محاربا غريبا حل في القبيلة لاجل مسمى فصحب مغيريها.

وعندما ظهر للرجل شبح الفتى المبلل، أمسى اشد خوفا من (تيموجين) نفسه. ولكنه اشفق على الاسير، والارجح ان قد خطر له ان الافضل ان يتخلص من الفتى، فكسر الطوق وحرق حطامه واخفى (تيموجين) في الوقت ذاته في عجلة مشحونة صوفاء.

والحرارة شديدة في الصوف المنفوش، وماكان مخبؤه هذا مخبأ مريحا امينا. وقد جاء محاربو الـ(تائيدجووت) يفتشون الخيمة، ويغرزون الرماح في حمل العجلة. فأصاب ساق (تيموجين) سنان من الاسنة.

«. . لو وجدوك عندي. لتلاشى دخان بيتي. ولا نطفأت ناره الى الابد .» هذا ما قاله الرجل الى اللاجيء، وهو عابس في الوقت الذي كان يزوده بالطعام والحليب وبقوس وسهمين. ثم اردف وقال: «اذهب الآن الى اخوتك وامك .»

ركب (تيموجين) جوادا استعاره. وقد اصبح في موقف لم يكن بأحسن مما وصفه له ذلك الاجنبي الا قليلا، اذ لم يبق في مأواه الا الرماد. وانه اضاع قطعانه وغاب عنه اخوته وامه. ولكنه عقب اثرهم فعثر على عائلة مختفية قد اضناها الجوع وهي امه (هوولهن) العابسة، واخوه (كاس سار) الجريء، و (بهل كوتائي) أخيه من ابيه الذي شغف به حبا.

لقد قووا على البقاء، وأسروا الى مضرب كريم ناء، ولم يكن في ركبهم الا ثمانية جياد. فصاروا يصطادون ابخس الصيد كالفيران ويقنعون بالسمك عن لحم الخراف. و(تيموجين) عالم بكيفية تجنب المكامن والتسلل من بين من يطاردونه للايقاع به. اجل انهم طاردوه، ولكن دهاءه عظم مع الايام فلم يلدغ، ولم يقع في الفخ ثانية.

هذا وانه وان هجر مراعي ابائه واجداده وفرمنها، فان الخان الفتى ما اراد التخلي عما ورثه الى اعدائه. زار مضارب قبيلته المبعثرة، وطلب من رجالها وهو على وقاره وحشمته (عشر الخان) عن المواشي الاربع وهي الجمل والثور والجواد والخروف ليقدمه الى امه.

ويلاحظ مما تقدم انه امتنع عن القيام بشيئين. فـ(بوورتائي) لاتزال وعيناها الشهلاوان على الطريق ترقب قدومه ليحملها الى خيمته، وابوها رئيس قبيلة قوى الجانب صاحب الرماح العديدة. الا ان (تيموجين) لم يستفزه كما انه لم يلتجيء الى (طوغرول) «الرزاق» الشيخ القوي النفوذ الشديد السطوة رئيس الاتراك الـ(قارا ايت)، الذي اقسم يمين الصداقة والاخوة مع

(يەسوكائى) ، وهو قسم يورث ولد الفريق الواحد حق مراجعة الفريق الثانى وطلب المعونة منه عند الاقتضاء. وقد يكون من اسهل الامور ان يرتاد المرء القفار للذهاب الى الـ(قارا ايت) شعب (برەستەرجون) الاسيوى، الذين كانوا يعيشون فى المدن المسورة ويملكون الخزائن الثمينة، والاحجار الكريمة، والاقمشة المحاكة، والاسلحة الجيدة وحتى الخيام المقصبة بالذهب.

«ان فى ذهابى مستعطفا فارغ اليد لذل، لا قوة. .» هذا ما قاله (تيموجين) داعما به ما عزم عليه.

وهكذا تمسك بحزمه وعزمه. وماكان تمسكه هذا غرورا ضالا. ولكن هذه هى طريقة تفكير المغولى الـ(ياك كا) الصائبة. اجل لقد اقسم (برەستەرجون) ليعاونه. وقسم الصداقة اوثق من عهد الملوك فى آسيا العليا. ولكن (تيموجين) لا يستغل سيد المدن وصاحب الطرف الثمينة ان لم يظهر امامه كحليف لا كلاجىء . . .»

وفى هذا الوقت سرقوا منه جياده الثمانية.

وقصة الجياد الثمانية قصة تستحق الذكر بتفاصيلها كما دونها التاريخ. فرجال (تائيدجووت) المتلصصون كانوا سراقا ماهرين. و(بەلكوتائى) كان غائبا حينذاك وهو على صهوة الدابة التاسعة وهى الفرس الشقراء التى حملت (تيموجين) عند فراره من (تارغووتائى) ، اذ كان (بەلكوتائى) غائبا فى صيد فيران الجبل. وعلى اثر رجوعه اقترب منه الحان الفتى وقال له:ـ

«انهم سرقوا الجياد . . .»

وهذا امر خطير، اذ سيجعل الاخوة الا واحدا منهم راجلين وتحت رحمة المغيرين عند غاراتهم المتوقعة.

تطوع (بەلكوتائى) للذهاب والرجوع بالجياد.

فعارضه (كاسسار) قائلا: «لا تقدر على التعقيب، والعثور عليها. انا الذى اذهب»

وقال (تيموجين): «لا يتيسر لك العثور على الجياد. وان عثرت عليها فلا تستطيع الرجوع بها. فانا الذاهب .. وانالها.»

وامتطى الفرس الشقراء المنهوكة القوى، وذهب معقبا آثار الفرسان والجياد الثمانية لمدة ثلاثة ايام متواليات. وقد تزود ببعض اللحم المقدد فوضعه تحت السرج فوق صهوة الفرس لتطرئته وتحميته. وكان قد تأخر فى المطاردة. وعرج الفرس زاد فى الطين بلة اخرى، حيث غاب الـ(تائيدجووت) عن انظاره وابتعدوا كثيرا اذ كانوا يستبدلون جوادا بآخر كلما تعب الاول.

وبعد الشروق الرابع صادف المغولى الفتى محاربا قرينا له يحلب فرسا بالقرب من الاثار التى كان يتعقبها فساله كابحا جماح فرسه:

«هل رأيت ثمانية جياد، ورجالا يسوقونها ؟»

«اجل، مرت بى قبل الفجر ثمانية جياد مسافة. وانى ادلك على الاثر.» ورمق هذا الفتى الاجنبى المغولى بنظرة ثانية. واخفى زقا له بعد ان اوثق فوهته بين عشب مرتفع وقال «اراك تعبا، قلق البال. ان اسمى (بورجوو) وانى سارافقك فى مطاردة الخيل...»

اطلق (بورجوو) الفرس الشقراء التعبة فى المرعى، واسرج على جواد اشهب من الجياد التى كان يرعاها، فقدمه الى (تيموجين) ليركبه. وعقبا الاثار وبعد ثلاثة ايام جاءا الى معسكر الـ(تائيدجووت) فشاهدا الجياد المسروقة ترعى على مقربة من المضرب.

وساق الفتيان الجياد امامهما ورجعا مسرعين ولكن المحاربين عقبوهما من فورهم وكان احدهم راكبا جوادا اشهب ومسلحا بوهق، حبل ذى انشوطة، اوشك اللحاق بهما.

فكلف (بورجوو) (تيموجين) ليعطيه قوسه فيكر على مطاردهما ولكن (تيموجين) ابى على رفيقه ذلك فاستمرا على سياقة الخيل حتى اخذت الشمس بالمغيب، وكان المحارب الراكب الاشهب قد لحق بهما وعلى وشك ان يقذف وهقه.

وعند ذاك قال المغولى الفتى الى صاحبه اليافع ان هذا الرجل سيرديك. والان على ان استهدفه بقوسى فكبح جماح جواده قليلا ووضع السهم على الوتر فاطلقه على الـ(تائيدجووت)ى وارداه قتيلا. اما رفقاؤه الآخرون فمسكوا على

اعنة خيولهم عند اقترابهم من الصريع. واسرع الفتيان فى ظلام الليل ووصلا آمنين الى مضرب والد (بورجوو) ومعهما الخيل ومأثرتهما الخالدة، فهب (بورجوو) للعثور على زق الحليب والاتيان به لتهدئة غضب ابيه، ثم اوضح له الامر قائلا :

«انى صحبته حين رايته مضطربا قلقا»

استمع الاب وهو صاحب قطيع كبير، الى اقوال ولده مرتاحا بعض الارتياح ؛ اذ ذاعت قصص مجازفات (تيموجين) بين البيوت وانتشرت من خيمة الى اخرى فى البرارى، وقال الأب: «انتما شابان. تصادقا. واصدقا فى صداقتكما..»

وزود الوالد والولد الخان الفتى بالطعام وملاءآ له زقا من حليب الافراس. واطلقاه فى طريقه. ثم عقبه (بورجوو) بعد زمن قليل ومعه فرواسود هدية لبيت (تيموجين) ولـ(تيموجين) الذى اختاره سيدا له.

فرحب به (تيموجين) قائلا «لولاك لما استطعت العثور والرجوع بهذه الجياد . . فنصف الثمانية لك . . »

لم يرض (بورجوو) بذلك وقال «اذا اخذت منك ما هو مالك، فكيف يصح لك ان تدعونى صديقا ؟ .»

وما كان (تيموجين) بخيلا، وليس فتيانه الشجعان ببخلاء ايضا. فالكرم متغلغل فى نفسه، وذاكرته لا تخونه ازاء من له الفضل عليه، وازاء من ناضله ونازله من المقاتلين والمحاربين، اذا لم يكونوا من ابناء قبيلته الصغيرة.

اكد (تيموجين) لاصدقائه قائلا. «ان المغولى لا يرجو الربح الا من اعتماده على شجاعته، كالتاجر الذى لا يرجو الثروة الا من بضاعته. وفى (تيموجين) محاسن ومثالب شعب بدوى آخر وهم العرب. فـ(تيموجين) بعيد عن الخلق الضعيف والطباع المتفسخة. وهو يرتاب من كل شىء لم يكن فى قبيلته. لقد تعلم ان يوازن دهاءه مع مكر اعدائه. وان قطع عهدا لاحد اتباعه، فلا يتخلى عنه.

ومن اقواله التى قالها بعد اعوام «ان الحنث فى العهد شناعة فى القائد» وكانت قيادته حتى بين قبيلته، التى اخذت الآن بالتزايد لعودة المحاربين الذين اتبعوا والده، لا ترتكز الا على المتانه اكثر من ارتكازها على كفاءته. والعادات العشائرية تقضى ان تكون قطعان الاتباع وسلاحهم لهم، وليس للخان. ولنجل (يەسوكائى) الحق فى طلب ولائهم طالما هو قادر على حمايتهم. والعنعنات العشائرية تسمح لرجال العشيرة ان يختاروا لهم رئيسا آخر، اذا اظهر (تيموجين) عجزا فى حروب البوادى المستمرة القاسية.

ان دهاء (تيموجين) صان حياته له وأدامها، اما حكمته المترعرعة فيه، فقد ابقت دعائم القبيلة الاساسية حوله. وهو باسل قوى البدن، منتبه قوى البصيرة. فالرؤساء الذين اغاروا على المطقة بين (كەروولەن) و(اونون) قادرون على طرده من التلال ودحره نحو السهول المنخفضة، ولكنهم لن يقدروا على اقناطه.

وقد قيل «ان قوة (تيموجين) واخوته، اخذت بالتزايد رويدا رويدا..»

وفى (تيموجين) اخذت تتلألأ شعلة امل لا تخمد. فهو يريد ان يكون السيد الوارث. وقد ذهب فى هذه الا وان، وهو فى السابعة عشرة من عمره باحثا عن (بوورتائى)، زوجته الاولى، ليخطفها.

الفصل الثالث

معركة العجلات

بين رجال القوس والسهم؛ قاطنى البقاع فى الايام الغابرة الطوال والجبال الشامخة البيض، (كما كان الصينيون القدماء يرغبون فى وصف هؤلاء البرابرة الشماليين) يجد المرء ميلا الى المجون اللذيذ، والاستفزاز الى الضحك. اذ ان الحياة كانت لديهم كدا مطردا، ذات عناصر قاسية، ومعاناة لا حد لها. وكل ذلك مما يولد من كل فرصة فيها بعض الراحة، عالما مملوءا بالفرح والمزح. وليس للمرء ان يبحث فى (تيموجين) ومغوله دون ان يدرك تلذذهم بالفكاهة. وقد يطيش مجونهم اللذيذ ويطغى طغيانا لا يطاق، يضاهى طغيانهم فى قسوتهم، كما كانت ولائمهم شؤونا لها ضجيجها وصخبها.

اما مراسم الزواج والدفن عندهم ففرص نادرة للولائم: (اى كوودوور). كان وصول (تيموجين) الى مضارب والد (بوورتاى) فترة لما كانوا عليه من تحارب يحاكى عراك الذئاب.

وصل (تيموجين) وما كان يتوقع وصوله احد، ومعه بضع مئات من الفتيان الفرسان مدججين بالسلاح ومزودين بالفراء ، ومرتدين المعاطف السائبة من الجلود المدبوغة، والدراعات الواقية المطلاة بمحلول اللك طلاء فضيا ، وقرب الماء معلقة فى مؤخرات السروج ، والرماح مشرعة. وصلوا وقد علا النقع والوعث طبقة الدهان التى تغطى وجوههم النابية الاصداغ، وتحميها من البرد، ومن لسعات الرياح.

رحب والد (بوورتاى) بالخان الفتى وحياه. ثم قال له «لقد سمعت بالعداء الناشب حولك. وما كنا نتوقع لقياك حيا، كما انت عليه الآن ....»

لقد كان هذا مشهد ضحك طريف ، وهتاف استحسان شديد. وقد حام الخدم بين الخيام ليذبحوا الخراف والخيل البدينة لطهيها.

وبعد ان ترك فرسان المغول سلاحهم عند مدخل الـ(يورت)، جلسوا الى يمين شيخ القوم، يشربون ويصفقون بين نغمات الربابات المنفردة الاوتار. وقبل كل جرعة من الشراب يخرج احد الخدم مسرعا فيسكب حسوة على الارض فى كل جهة من جهات الرياح الاربع.

وفى السهل جمع من الفرسان المقتحمين الصحو والنو، يمطون آذان رفاقهم كأنهم يريدون به توسيع حلاقيمهم لازدراد اللبن المخمر، وخمرة الرز ازدرادا سهلا، ويرقصون ؟ بل وما كانوا يرقصون الا انهم يقفزون وينطون وبارجلهم احذية من جلود الدببة.

وفى اليوم الثالث، جلست (بوورتاى) فى الجانب الايسر من خيمة الرئيس وقد لبست اللباد الابيض، وثقلت جدائل شعرها بمسكوكات الفضة والتمائيل الصغيرة. وكان لباس رأسها، مخروط الشكل معمولا من قشور شجر البتولا، ومنجدا بالحرير، ومثبتا من طرفى الاذنين بجديلة من الشعر. وقد ظلت قابعة الى ان حل وقت الرحيل، وعندئذ فرت الى الخيام الاخرى، فوجب على (تيموجين) ان يتعقبها الآن منجزا مراسيم الكفاح مع اخواتها ومن يساعدها من الفتيات. وقد احتضنها أخيرا وحملها بين ذراعيه الى صهوة جواده.

هذه وليمة عرس صغيرة لحسناء ذات أنف صغير رحلت من مضارب أهلها على صهوة جواد (تيموجين)، بعد انتظار مجيئه اربع سنوات متواليات، وهى الآن فى الثالثة عشرة من عمرها.

هكذا اركبت الجواد موثقة من خصرها وصدرها بحبال زرق، وقد حمل خدمها معطفا من فرو الفنك هدية الى والدة (تيموجين). لقد اصبحت الآن زوجة الخان وربة داره. وعليها ان تعتنى به. وان اقتضى الامر، ان تحلب الخيل والمواشى، وتحرس القطعان وترعى بهم عندما يرحل الرجال الى الحروب؛ وان تصنع اللباد للخيام، وان تخيط الاردية بالاوتار، وان تعمل الانعلة، وتحوك الجوارب للرجال.

هذه هي واجباتها، وقد كانت حقا ذات نصيب وافر في تفوقها على غيرها من النساء في ادارتها وكفايتها. والتاريخ يعرفها لنا باسم (بوورتائي فيدجهن) او بوورتاي الامبراطورة، ووالدة ثلاثة انجال حكموا بعد حين من الدهر مملكة اعظم من الامبراطورية الرومانية.

وفرو الفنك نال نصيبه ايضا ، اذ قد رأى (تيموجين) ان الوقت حل الآن لزيارة طوغرول الـ(قارا ايت) ، فاستصحب معه ابطاله الفتيان وفرو الفنك ليهديه اليه.

ويظهر ان (طوغرول) كان رجلا مستقيما، محبا للسلام. ولوانه لم يكن مسيحيا الا ان اغلب رجال قبيلته تنصروا واصبحوا مسيحيين نسطوريين. وقد تلقوا التعاليم المسيحية من رسولين من الرسل القدماء، وهما القديس (أندريا) والقديس (توما). وكانوا يقطنون البلاد النهرية، حيث تقع الآن مدينة (اوورغا) . ولما كان اغلب القبيلة اتراكا نراهم قد زاولوا التجارة، ومالوا الى الترف والرخاء ، فتاقوا المغول بذلك .

و(تيموجين) في زيارته الاولى هذه الى بلاط أبيه في التأخي ـ اذا صح لنا التعبير ـ لم يجد يدا طالما معاونة الـ(قارا ايت) الاشداء. ولكن (طوغرول) بذاته هو الذي ذكره قبل رحيله ، بالعهود التي تربطهما .

ولم ينقض عهد طويل من الزمن ، حتى تقدم (تيموجين) واستنهض صداقة الخان العظيم . لقد ثارت ثائرة الانتقام ثانية في (كوبى) ، فانحدرت قبيلة قوية من السهل الشمالي وغارت على حين غرة وبدون توقع على معسكر المغول . وهذه كانت قبيلة الـ(مهركيت) . وهم برابرة حق، سليلو العرق الاصلي القاطن في منطقة سهول (سيبريا) وهضابها، وهم سكان «العالم المنجمد الابيض» حيث يتنقل الناس فيه على مزالق تجرها الكلاب والرنة .

والـ(مهركيت) محاربون اشداء بكل ما في الكلمة من معنى ، وقبليون مناضلون خطف منهم والد (تيموجين) قبل ثمانية عشر عاما (هوولهن) ، ويغلب على الظن انهم لم ينسوا ظلامتهم ؟ فجاءوا مغيرين ليلا، والقوا المشاعل الملتهبة في مضرب الخان الفتى .

نجا (تيموجين) على صهوة جواده ، بسهامه • اما (بوورتاى) فسبيت ونزولا عند العدل العشائرى سلموها الى قريب للرجل الذى سلبت منه (هوولهن) •

لم يتمتع المحاربون الشماليون ببقاء عروس المغول لديهم كثيرا • فتيموجين الاعزل من الرجال اتجه الى (طوغرول) والده فى التاخى مستنجدا به، فانجده كما اراد ومن فوره، فانحدر المغول والـ(قادا ايت) فى ليلة مقمرة لشن الهجوم على القرية والـ(مركيت) فيها•

والتاريخ يصف لنا المشهد هكذا :ـ كان (تيموجين) على ظهر جواده يحوم ويجول بين الخيام المتبعثرة وينادى باسم عروسه الضائعة • و(بوورتاى) تسمع صوته ، فتعدو اليه وتتمسك بركابه ، ليعرفها•

وعند ذاك يصرخ (تيموجين) برفاقه قائلا «اننى عثرت على ماكنت انشد»

و(تيموجين) وان لم يتأكد من ان بكرها كان من صلبه ، غير ان لتعلقه وارتباطه بها ، ولحبه الاكيد لها لم يفرق بين اولاده منها • فهو والد أنجال آخرين• وكلهم رفاقه المعززون المقربون• والتاريخ لم يذكر لنا زوجاته واولاده الآخرين الا باسمائهم ذكرا ثانويا •

وبصيرة (بوورتاى) كثيرا ما أزاحت الستار عن مؤامرات أريد بها اغتيال زوجها• فتجدها عند الفجر جاثية عند فراشه تنحب وتبكى وتقول :ـ «لو ان اعداءك حطموا ابطالك العظام الشامخين شموخ الارز ، فما الذى سيحل باولادك الضعفاء الصغار ؟ »•

لم تهدأ المعارك بين قبائل البادية • والمغول ما زالوا اضعف الرحل المنتشرين فى القواحل خارج السور العظيم • ان حماية (طوغرول) انقذت (تيموجين) بضع سنوات من جموع العشائر القاطنة فى اقصى الغرب • ولكن تاتار (تائيدجووت) وبحيرة (بوويار) (*) اغاروا من الشرق عن عداء كمين،

(*) التاتار قوم غير المغول• فالاوروبيون القدماء اطلقوا خطأ اسم التاتار على المغول ايضا كما واطلقوا اسم (التاترية) على امبراطورية خانات المغول • فالكلمة من أصل (صينى) وهى (تـأتـأ) (T'A.-T'A.) ، او (تا ـ تزى) (T'A.-TZI) اى الشعب البعيد • وقد اتخذ التاتار اسمهم هذا من أسم رئيس قديم لهم (تاتوور)

وبقسوة ما وراءها من قسوة. ولم تصن حياة الخان الا جماعة وفيرة العدد، استماتت فى سبيل الذود عنه كما يستميت الذئب فى درء الخطر.

وتعرض (تيموجين) مرة الى براثن الموت فى الثلوج وهو جريح سهم اصابه فى عنقه فعثر عليه رفيقان له فمصا الدم من جرحه ، واذابا الثلج فى وعاء فغسلاه له . وما كانت رابطة هؤلاء المحاربين قولا مجردا ، فانهم نهبوا له طعاما من مضرب عدو ، و(تيموجين) فى فراش مرضه. وكذلك ظللوه عندما كانت تهب العواصف على السهل برداء جلدى ، فوقوه من ضرباتها وهو نائم .

وزار (تيموجين) مرة خيمة خان يظهر له الصدق والاخاء . ولكنه ما كاد يجلس حتى اكتشف جبا قد حفر تحت البساط الوثير المعد له . ولم يمر وقت طويل حتى استدعى (تيموجين) قبيلته بكاملها لينقذها من ورطة مهلكة كادت ان تودى بها.

لقد اصبح المغول الآن يعدون ثلاثة عشر الف محارب. وقد ساروا فى رحلتهم من مراعى الصيف الى مراعى الشتاء ، متبعثرين فى واد طويل ، وشاحناتهم المظلله ـ كى بيت كا ـ او عجلاتهم الخيمية تدب متئدة بين قطعانهم البطيئة السير. واذ هم فى زحفهم الوئيد هذا ، واذا الاصوات تعلو والانباء تصل الى الخان بأن عدوا غازيا فى الافق ينحدر مسرعا يريد الانقضاض عليه.

لم يقع اى وارث عرش فى اوربا فى موقف مثل هذا .

فقد كان العدو يعد ثلاثين الفا، وقائدهم (تارغووتائى). والانهزام فى هذا الموقف معناه تضحية النساء والمواشى وكل ما تملكه القبيلة . اما قيادة كوكباته المحاربة والاندفاع بها لمناوأة الـ(تائيدجووت) يعنيان وقوعه فى شرك تفوق اعدائه العددى ، ومحو اتباعه او تشتتهم.

لقد كانت الازمة التى جابهت القبيلة وجها لوجه ازمة موت وفناء ، الا انها لا تحل الا بقرار فورى من الخان وبعمل حاسم منه.

نفر (تيموجين) توا ، وبدافع غريزته شمر عن ساعده ، وفتح للازمة صدره .وامتطى رجاله جيادهم فأخذوا يتجمعون كل تحت ظل رايته. فصفهم

فى نسق السرايا ساندا احد جناحيهم الى غابة ، وشكل مربعا فسيحا من العجلات ، فاسند الجناح الثانى اليه ووضع المواشى فى وسط هذا المربع واخفى النساء والاحداث والاطفال فى العجلات وهم مسلحون بالسهام .

والآن ، وقد هيأ قوته لمجابهة هجوم الثلاثين ألفا، وهم يعبرون الوادى. وقد كانوا فى صفوفهم ونظامهم المتراص فى سرايا مؤلفة من خمسمائة فارس؛ فى خمسة صفوف يتقدم كل سرية منها مائة فارس فى النسق وخمسة فرسان فى العمق .

وفرسان الصفين الاماميين يرتدون الدروع، ودروعهم صفائح حديد ثقيلة ثقبت وربطت الى بعضها البعض بالسيور ، وعلى رؤوسهم المغافر الحديدية او الجلد المقوى المطلى باللك يعلوها اعراف من شعر الخيل . كما كانت خيولهم مدرعة ايضا بدروع جلد تغطى الاعناق والصدور والجوانب. والفرسان يحملون التروس المدورة الصغيرة، والرماح، وقد علقوا تحت استتها خصلا من شعر الخيل .

وقف الصفان المتقدمان المدرعان فتقدمتهما الصفوف الخلفية متخللة من بينهما، وهم رجال يرتدون الجلود المدبغة ومسلحون بالنبال والاقواس . وهؤلاء وهم على جيادهم النشطة استداروا امام المغول واخذوا يرشقونهم بسهامهم ساترين تقدم الخيالة الثقيلة .

ورجال (تيموجين) وهم مسلحون ومجهزون كاعدائهم قاوموا الهجوم برشقات حزم السهام المتطايرة من اقواس قوية زيد فى توترها بالقرون .

انقطعت هذه المناوشات برهة حينما استدارت خيالة الـ(تائيدجوت) الخفيفة الى الوراء لتأخذ موقعها خلف الخيالة المدرعة كما كانت ، فتقدمت عند ذاك السرايا المتكتلة حضرا . وعندها اطلق (تيموجين) رجاله لمنازلتهم ، ولكنه نظمهم فى نظام السرايا المزدوجة فى كتل تتألف كل منها من الف فارس ذات عشرة صفوف. ومع ان قوته كانت مؤلفة من ثلاث عشرة وحدة وقوة اعدائه الـ(تائيدجوت) من ستين جماعة ، فان حملة تشكيلاته العميقة على تلك الجبهة الضيقة صدت تقدم الـ(تائيدجوت) وشتتت السرايا المتقدمة .

وعند ذاك اتيح لـ(تيموجين) فرصة وقدرة مهاجمة سرايا عدوه الخفيفة بكتله الثقيلة. وهكذا أغار المغول فشتتوا شمل عدوهم واهلكوا من اهلكوا منهم. وبينما هم يندفعون فى مطاردة عدوهم كانوا يتقدمون ويعقبون اللواء ، ذا ذيول الياق التسعة ويرشقون بنبالهم ذات اليمين وذات الشمال .

كانت المعركة من اشد معارك البوادى، والغزاة الفرسان، يصرخون الصراخ المرهب، ويتدافعون تحت رشقات الاسهم ويلوحون بسيوفهم المقوسه ويتطاحنون؛ فيطرح العدو عدوه من صهوة الجواد على الارض ويتطاعنون بالنبل، وبالرماح المعقوفة الاسنة . فانلت السرايا كقيادات منعزلة ، وكروا وفروا فى تناحرهم بين سفحى الوادى كما وتفرقوا فى حملاتهم ، ثم جمعوا الشتات واعادوا الكرة والحمله .

وقد استغرقت المعركة طيلة النهار وادركت المغيب ونال (تيموجين) فى ختامها الظفر والنصر الحاسم، واوقع فى عدوه خسائر تتراوح بين الخمسة والستة آلاف قتيل . وقد قاد اتباعه اليه سبعين رئيسا من اعدائه ، علقت سيوفهم وكناناتهم فى رقابهم . وتذكر لنا بعض المراجع ان (تيموجين) أمر بأن يقتل السبعون رئيسا قتلة غريبة لا يماثلها ضرب من القتل، وذلك بغليهم فى القدور احياء ، وهذه قسوة لا يمكن تصورها . أجل ، ان الخان الفتى لا يشفق ولا يرحم، ولكنه يحسن استغلال الرجالات الاكفياء الاسرى.

الفصل الرابع

تيموجين والسيول

خاض خان المغول ذو الشعر الاحمر ملحمته الاولى ، وانتصر فيها ، واصبح الآن يحمل العصا العاجيه او القرنية ؛ وهى على هيئة صولجان صغير، ذلك الصولجان الذى يتقلده عن جدارة مشراء الجيوش، قادة الرجال.

لقد امسى الآن يتضرم شوقا الى جمع الرجال حوله وخدمته. ومما ريب فيه ان ينبوع شوقه هذا يرجع الى اعماق سنين البؤس التى اشفق فيها (بورجوو) عليه ، وانجته سهام (كاس سار) العنيد من الموت.

ولكن (تيموجين) لم يقس القوة بمفهوم القوة السياسية التى لم تخطر على باله حتى الآن الا قليلا، كما وانه لم يقسها بمقاييس الثروة وهى ضنينة عليه، وانه كمغولى لم يرغب الا فيما يحتاجه . وان مفهوم القوة لديه هى قوة الرجال ؛ فهو عندما امتدح ابطاله امتدحهم بقوله : «انهم فتتوا الصخور الصلبة ، وهدموا المهاوى والاجراف ، واوقفوا سيول المياه الطاغية .»

وكان الاخلاص رائده وهو عنده فوق كل شىء ، وقبل كل شىء ؛ وكل ما كان يستهدفه . فالخيانة لديه كانت خطيئة القبلى التى لا تغتفر ؛ فالخائن قد يسبب محو الـ(اوردو) او قرية الخيام بكاملها ، او قد يوقع الغزاة فى الفخ . اجل ان الاخلاص الى العشيرة ـ او بالاحرى الى الخان ـ هو كل امنيته وبغيته السامية ، واليك قوله : «ماذا يقال عن رجل يعد صباحا ، ويحنث بعهده مساء» وانه صار يردد افتقاره الى الرجال فى ادعيته وصلواته . لقد اعتاد المغولى ان يتسلق قمة جبل اجرد يعتقده عرش الاله الـ(تانغرى) ؛ اى روح الفضاء التى تهدىء الرياح والعواصف والانواء المرعبة الاخرى المنبعثة من السماوات غير المتناهية . وهكذا نراه يعلو قمة ذلك الجبل ويتجه الى جهات الريح الاربع فيصلى ويتوسل وزناره فوق منكبيه وهو ينشد :ـ

«ايتها السموات اللامتناهية ! ارحمينى ، وارسلى لى ارواح الفضاء لتقينى . وارسلى الى فى الارض الرجال ليساعدونى».

واجتمع الآن الرجال تحت راية ذيول الياق التسعة ، جموعا زاخرة؛ ولم يتجمعوا عوائل بالعشرات بل بالمئات • وجلست قبيلة رحالة لها ثار مع خانها القديم تناقش نقاشا حادا أليما مزايا (تيموجين) المغول وما انجزه :ـ «انه سمح للقانص ان يتملك قنيصه في غارات القنص الكبرى ، ومنح لكل رجل بعد المعارك حصة عادلة من الاسلاب، وانه نزع معطفه عن ظهره واهداه ، وانه ترجل من صهوة جواده واعطاه الى معوز»

ما من قائد رحب بكسبه انضمام رجاله اليه ترحيبا حارا، كما رحب خان المغول بهؤلاء الرجال • لقد كان يجمع حوله مجلسا ، لا حاجب ولا مستشار فيه ، ولكنه مؤلف من الابطال المحاربين • ومن البديهي ان يكون بينهم (بورجوو) و (كاس‌سار) ـ اول من حارب بجانبه ـ وكذلك (آرغوون) الضارب على الرباب و (بايان) و(موهوولى) • وهما قائدان امتهنا القيادة وخاضا المعارك والحروب ، و(سوو) رامي السهام الغاضب•

ويظهر لنا ان (آرغوون) كان شجاعا مرحا ، ان لم يكن مغنيا مطربا• فأننا نعرف عنه لمحة خاطفة عندما استعار من الخان ربابه الذهب التي يعتزبها فاضاعها ؛ فاستاء المغولى الغضوب للأمر وارسل مغوارين من مغاويره لقتل (آرغوون) ، ولكنهما عوضا عن قتله القيا القبض عليه واجبراه على شرب زقين من الخمر واخفياه • وعند فجر اليوم الثاني انهضاه من مضجعه وقاداه الى مدخل (يوورت) الخان وناديا : «لقد بزغت الشمس على (اوردو)ك • ايها الخان ! فأفتح المدخل ، وأرأف»

فانتهز (آرغوون) فرصة السكون والهدوء هذه وغنى :ـ

عندما الدج يغني شاديا لحنا شجيا
في ظلال الدوح يمسي شدوه الصافي عليا
وهو في نجواه ساه ، لا يرى شيئا خفيا
ينبري الباز لتقويض جناحه،
لا يبالي بغناه أو صياحه•

هكـذا انى تعرضت لسخط ذى بليـه
سخط مولاى الذى يرغب ان يقسو عليه
لست بالسارق، لكن اشتهى الكأس الرويه
لا تعـاقب سيـدى، المغـرى براحـه
فى مسـاه يحتسيهـا وصبـاحه *

ان عقاب السرقة الموت • ولكن الخان عفا عن (آرغوون)، اما ما حل بالرباب الذهب فبقى سرا غامضا حتى يومنا هذا •

ومغاوير الخان ؛ اشتهروا فى ارجاء (كوبى) بشهرة الـ(كيات) او السيول الماحقة، فاثنان منهم ، وكانا عندذاك صبيين ، احلا بعد حين من الدهر الدمار والخراب فى ما وراء تسعين درجة من خط الطول وهما (جه‌به‌نويون) الامير الباطش و(سووبوتاى به‌هادوور)•

واننـا نرى ان (جه‌به‌نويون) يظهر على المسرح كفتى عشيرة معـادية طارده المغول بعد معركة من المعارك التى قادها (تيموجين) الى ان لحقوا به فأسروه، وكان راجلا فطلب جوادا داعيا الى منازلة اى رجل من المغول• وقد اسعفه (تيموجين) فاعطى الفتى جوادا سريعا ذا غرة بيضاء فركب (جه‌به) الجواد وغار متخللا صفوف المغول وهرب • ولكنه عاد بعد حين وأبدى رغبته فى خدمة الخان •

وبعد امد طويل عندما كان (جه‌به‌نويون) يجول فى (تيان شان) يتعقب (كوجلووك) كاثاى السوداء جمع سربا من الف جواد من الجياد ذوات الغرر البيض، فأرسلها هدية الى الخان شارة الى انه لم ينس ذلك الحادث الذى نجا فيه من الموت •

و(سووبوتاى) الـ(اووريان‌خى) ـ قوم الايائل الانيسة ـ كان اقل شدة وقوة ولكنه اوفر فطنة وذكاء من (جه‌به)• وفيه نفحة من شدة عزم (تيموجين)،

(*) والاصل فى النص الانكليزى هو : عندما يغرد الدج اغرودته : تينك ، تونك • فالباز ينقض عليه قبل النبرة الاخيرة من اغرودته • وهكذا تعرضت الى سخط سيدى • اواه ، انى احب الكأس الطافحة ؛ ولكننى لست بالسارق • •

وفي معركة مع التاتار كان الخان قد طلب قبل الاشتباك بها، ضابطا ليقود الحملة الاولى ؛ فتقدم (سووبوتاى) متطوعا ، وقدره الخان على تطوعه ، وطلب منه ان يختار مائة محارب ليؤلفوا حرسه الخاص . فأجابه (سووبوتاى) بأنه لا يريد احدا برفقته ، بل ان يذهب وحيدا، متقدما الغارة .

وبالرغم من الشك الذى ساور (تيموجين) فيما ذهب اليه (سووبوتاى)، سمح له بالذهاب منفردا ، فركب (سووبوتاى) جواده واتجه الى معسكر التاتار ، ودخله مدعيا تنصله من خدمة الخان وجاءهم ملتحقا بهم ، واقنعهم بأن غارة المغول غير قريبة الوقوع؛ فأهملوا امر الاستعداد لمناضلة عدوهم .

ولما اغار المغول عليهم، كانوا على غير أهبة للقتال ؛ فتشتتوا وانخذلوا. وكان قد وعد (سووبوتاى) الخان الفتى بقوله «اننى سأدرأ عنك اعداءك ، كما يدرأ اللياد الريح. وهذا ما سأوفى به ».

وأكد ابطال الخان له بقولهم «اننا عندما نأسر الحسان من النساء ، ونغنم الجياد الطيبة ، فأننا سنأتى بها اليك . واذا خالفنا اوامرك ، او الحقنا بك الاذى، فاهجرنا الى الاماكن القاحلة النائية لنموت» فأجابهم (تيموجين) «لقد انضممتم الى عندما كنت كالغارق فى نومه . وكنت قابعا يائسا . فانتم الذين انهضتمونى وبعثتم فى العزائم».

لقد احترموه بما كان يستحقه من الحرمة كخان المغول الـ(ياكا) . اما هو فقد امتدح ابطاله واغدق عليهم من كرمه واضعا نصب عينيه ميول كل واحد منهم .

ومن اوامر (تيموجين) ان يجلس (بورجوو) بالقرب منه فى الـ(قوروول تاى) ـ مجلس الرؤساء ـ وان يكون من ضمن الرجال الذين يحق لهم حمل قوس الخان ونباله ، وآخرون يكونون سادة المؤن المسئولين عن المواشى، وآخرون غيرهم يكونون سادة الـ(كى بيت كا)ت والخدم. اما (كاس سار) القوى البنية ، القليل الفطنة فقد دعاه حامل السيف . وكان (تيموجين) حذرا فى اختيار ذوى الفطنة من الرجال ومقداما فى اصطفاء ملازميه ؛ قادة الجيوش المسلحة . فانه يعلم حق العلم قيمة الدهاء الذى يكبح

زمام الغضب ، مترقبا الوقت الملائم لانزال الضربة • وفى الحقيقة ان كنه الخلق المغولى يتجلى فى التوءدة والصبر • فمن كان شجاعا مجازفا من الرجال عهد اليه الـ(كى بيت كا)ت وجميع المؤن ذات الشأن، اما الحمقى منهم فيتركهم لرعى الاغنام •

وقد قال عن قائد من قادته «لا رجل اشجع من (يەس سووتاى)، ولم يوهب احد مواهب نادرة مثله• ولكن، لما كانت المسيرات الطويلة لا تتعبه، ولا يحس بالجوع او العطش، فانه يعتقد ان ضباطه ورجاله ايضا لا يتضورون جوعا وعطشا• وهذا الذى يجعله غير أهل للقيادة• فعلى القائد الاعلى ان يفطن الى عاملى الجوع والعطش لكى يحس بآلام من بقيادته• وعليه ان يديم قوة رجاله وحيواناته••

والخان الفتى مفتقر الى كل ما لديه من عزم رصين، والى روح عدل متزنة اتزانا كليا ليديم سيطرته على هذا الحفل المؤلف من المحازبين المتفانين• فالرؤساء الذين كانوا ينضوون تحت لوائه كانوا صعبى المراس، شديدى الشكيمة كقرصان البحر• فالتـاريخ يذكر لنا كيف تقدم والد (بوورتاى) واتباعه وابناؤه الاحداث السبعة الى الخان• فقد تبودلت الهدايا، واخذ ابناؤه السبعة مراكزهم بين المغول• ولكنهم صاروا يثيرون الحزازة والبغضاء اثارة لا حد لها بينهم، وعلى الاخص (تەب تانرى) منهم وهو شامانى، او كاهن منجم• وكشامانى فالمفروض انه قادر على التخلى عن جسده والحلول فى عالم الارواح، مما جعل له قدرة التنبؤ•

وفى (تەب تانرى)طموح مرير• فبعد ان قضى بضعة ايام فى خيام عدة رؤساء تجمهر هو وبعض اخوته وضربوا (كاس سار) ضربا مبرحا بالعصى ولكموه اللكمات العنيفة بالجموع•

شكا (كاس سار) امره الى الخان• فأجابه اخوه: «انت تتفاخر بان ليس من احد يضاهيك فى القوة والدهاء• فلماذا خنعت الى ضرب هؤلاء الاحداث؟»

غضب (كاس سار) لقول اخيه، وانسحب الى مأواه فى القرية، وانزوى عن (تيموجين)• وفى هذه الفترة قصد (تاب تانرى) الخان وقال:

الشامـانى (ـاب ـان رى) . السـاحر المغولى .

مستنسخ من اثر افرنسى فى التاتار .

obeikandl.com

منظر حربى، مستنسخ من تصوير ايرانى قديم. يبين لنا
بجلاء الدروع والسروج والاسلحة. وقد يعود عهدها
الى عام ١٥٠٠ على وجه التقريب.

منظر صيد ايرانى، فى اوائل القرن السابع عشر.
يبين انواع الاسلحة المستعملة فى القنص.

«ان روحي استمعت الى كلمات جاءت من العالم العلوى تنبىء عن حقيقة بينة اوحيت لى من الاله ذاته. وهى ان (تيموجين) سيحكم شعبه حينا من الدهر، ومن بعده سيحكم الشعب (كاس‌سار). فان لم تقض عليه فسلطانك لا يطول.»

وكان لمخاتلة الكاهن المشعوذ هذه، تأثيرها فى نفس الخان، التى لم يتلقها الا تنبؤا. وامتطى الخان فى ذلك المساء جواده مستصحبا رهطا صغيرا من المحاربين وقصد (كاس‌سار) ليقضى عليه. فعلمت (هوولەن) امه بجلية الامر، فأمرت خدمها ان يهيئوا لها عجلة تجرها النياق السريعة ولحقت بالخان.

وصلت الام خيمة (كاس‌سار)واجتازت الحرس المحاربين الذين طوقوا الخيمة، فدخلتها ووجدت (تيموجين) فى غضبه واقفا امام (كاس‌سار) ، و(كاس‌سار) جاث حاسر الرأس محلول الحزام. وقد استولى فزع الموت على شقيق الخان الصغير، رجل السهم.

فاسرعت (هوولەن) تلك الامرأة الحازمة ففكت (كاس‌سار) من وثاقه وجلبت اليه قبعته وحزامه. ثم جثت وكشفت عن صدرها وخاطبت (تيموجين): انتما الاثنان رضعتما من هذين الثديين. (تيموجين) ! انت ذو مواهب عدة. اما (كاس‌سار)فموهبته الوحيدة القوة والجدارة فى رمى السهام دون خيبة؛ فعندما عصاك الرجال اخضعهم لك بسهامه.»

اصغى الخان الفتى صامتا خانعا، وتريث الى ان زال غضب امه. ثم خرج من الخيمة وهو يقول. «لقد اخذنى الوجل عندما شرعت بعملى. اما الان، فانا خجل من نفسى..»

استمر (تاب‌تاذرى)على تجواله فى الخيام واثارة القلق. وقد امسى شوكة فى جانب الخان المغولى يوخزه ويؤذيه بمدعياته بالالهامات الخارقة للطبيعة التى تدعم له خططه ونواياه. وقد التف حوله لفيف من الناس. هذا وطموحه النفسى جعله ان يعتقد بقدرته على دس السم فى الدسم لهد قوى المحارب الفتى وتحطيمها. ولكنه تجنب مناوأة الخان بنفسه او الاشتباك معه.

ومن اعماله انه قصد واعوانه (تەموغو) شقيق الخان الاصغر، فأرغموه على السجود لهم.

والعادات القبلية تحول دون الالتجاء الى السلاح في حل النزاع بين المغول. ولكن بعد اعمال الشامانى هذا، ارسل (تيموجين) وراء (تەموغو) وقال له : «سيأتي اليوم (تاب‌تانرى) الى خيمتى، فعامله كما تشاء...».

ما كان الموقف موقفا هينا .. فـ (مەنليك) احد رؤساء العشائر ووالد (بوورتاى) عاونه في الكثير من الحروب واكرمه. و(تاب‌تانرى) كان شامانيا، ونبيا ومنجما. والمتوقع من الخان ان يتمسك بقسطاس العدل في معالجة النزاع، لا ان يتبع رغباته وميوله.

كان الخان وحيدا في خيمته، جالسا بجانب الموقد. حين دخل عليه (مەنليك) وابناؤه السبعة، فحياهم وجلسوا الى يمينه. وعند ذاك دخل عليهم (تەموغو)، وقد تركوا الاسلحة عند مدخل الخيمة جريا على العادة. اما (تەموغو) فتقدم الى (تاب‌تانرى) وامسكه من كتفه وقال له. «لقد ارغمتنى امس ان اسجد لك. اما اليوم فاريد منازلتك» فتشاحنا وتصارعا برهة، ونهض ابناء (مەنليك) الاخرون ووقفوا مستفزين.

اما (تيموجين) فصرخ بالفريقين قائلا : «لا تتصارعا هنا. اخرجا من الخيمة...».

وعند مدخل السرادق وقف ثلاثة من المصارعين الاشداء ينتظرون ، ولقد كانوا ينتظرون هذه اللحظة. وسواء أتلقوا الاوامر من (تيموجين) ام من (تەموغو)، فانهم قبضوا على (تاب‌تانرى) عند خروجه من السرادق وكسروا له ظهره ورموه جانبا، فبقى طريحا عند دواليب العجلة لا حراك به.

وعند ذاك نادى (تەموغو) اخاه الخان قائلا: «اجبرنى (تاب‌تانرى) امس ان اسجد له،والان عندما دعوته الى المباراة بالقوة، اضطجع لا يريد النهوض...»

خرج (مەنليك) واولاده الستة الى الباب فنظروا ورأوا جثة الشامانى مطروحة فاستولى الحزن على الرئيس الشيخ فعاد الى (تيموجين)وقال : «ايها الخان ! انني خدمتك، ولكن هذا اليوم هو الاخير . .»

ان ما كان يقصده من قوله هذا واضح جلى. وقد تحفز ابناؤه الستة للحملة على المغولى. فنهض (تيموجين) وهو اعزل من السلاح، وليس من مخرج فى السرادق الا مدخله، وعوضا عن طلب النجدة، صرخ عابسا بالغاضبين عليه «تنحوا جانبا، اريد الخروج.»

لقد فاجأهم بهذا الامر الجازم، فتجنبوه، وخرج من الخيمة الى الجماعة المنتظرة من محاربيه. والقصة حتى هذه المرحلة منها لم تكن الا حادثا طارئا من الثارات الخالدة التى يجب ان يثأر لها من الخان ذى الشعر الاحمر. ولكنه كان يود ان يتجنب اثارة سفك الدماء مع قبيلة (مەنليك) . وانطرد واحدة منه الى جثة الشامانى اعلمته بان (تاب‌تانرى) قد مات.فأمر بتحريك عجلة خيمته على الجثة ليواريها، كما امر بغلق رفراف المدخل وربط مشداته.

وفى ظلمات الليلة التالية ارسل (تيموجين) اثنين من رجاله ليرفعا جثة الكاهن الساحر ويخرجاها من كوة دخان الخيمة فى اعلاها. وعندما اخذت الغرابة مأخذها من رجال الـ(اوردوو) عن مصير المشعوذ، فتح (تيموجين) رفراف المدخل واخبرهم بالامر قائلا:ـ

«ان (تاب‌تانرى) تآمر على اخوتى وضربهم. والان لقد رفعت السماء روحه وبدنه اليها.»

ولكنه عندما خلا بـ(مەنليك) قال له جادا. «انك لم تعلم اولادك الطاعة، بالرغم من افتقارهم اليها. وابنك هذا اراد ان يتاوثنى فى منصبى . فقضيت على حياته كما اقضى على حياة غيره. اما انت، فقد وعدتك ان انجيك من الموت مهما كانت الظروف. وهكذا دعنا نسدل الستار على هذه القضية.»

لم تنته حروب عشائر (كوبى)، ذلك الصراع الوحشى بين القبائل العظمى. ولم تنقض الغارات والفجائع، ولم ينفد السلب. هذا وان كان المغول ما زالوا احد الشعوب الضعيفة الجانب، الا ان لواء الخان اصبح يظلل

مائة الف خيمة من الخيام. فدهاؤه قومه، وعزمه المبين غرس فى محاربيه البسالة والشجاعة. والان وقد اصبح مسؤولا عن شعب كامل، لا عن بضع عوائل، وهو الان ينام الليالى قرير العين. وقد تكاثرت ماشيته بتكاثر اعشار الخان وتزايدت تزايدا محسوسا. وقد تجاوز الان الثلاثين من عمره ونراه وهو فى اعز قوته وشبابه يقوم برحلة فى سهول (يەسووكاى) مستصحبا اولاده معه يبحثون عن الحسان للاقتران بهن. اجل، لقد استعاد الان ارثه من اعدائه، وهو عازم على حمايته والاحتفاظ به. هذا وقد خاطب المجلس فى احد الايام قائلا. «قال لنا اجدادنا مكررين بان الجسد الواحد لا يمكن ان يحوى على اكثر من قلب واحد ودماغ واحد. وهذا ما اريد تحقيقه. فانى سابسط سلطانى على من يجاورنى...»

وكل ما كان يشغل باله هو ان يجمع كل المقاتلين الاشداء ضمن نطاق اتحاد عشائرى واحد، وان يضم اعداءه الموتورين تحت لواء رعايته. نعم، هذا ما كان يشغل باله، ولتحقيق هذا شمر عن ساعديه متمسكا بصبره الطويل ورويته الوقادة.

الفصل الخامس

عندما رفرفت الراية فوق (غوروبتا)

لا علاقة لنا هنا، بحروب القبائل الرحالة التي تطاحن وتناحر فيها التاتار والمغول. والـ(مه‌ركيت) والـ(قارا ايت) والـ(نه‌ئي‌مان) والـ(اويغور) في نجود البراري من سور (كاثاي)، الصين العظيم حتى الجبال الشامخة من اواسط آسيا في الغرب. فالعصر الثاني عشر كاد ان ينتهي، و(تيموجين) كان لا يزال يجهد وراء تحقيق ما اوحى له اجداده؛ وهو تحقيق الاتحاد العشائري. وهذا لا يتم نواله الا بطريقة واحدة ؛ وهي تفوق عشيرة واحدة على غيرها من العشائر .

وكانت قبائل الـ(قارا ايت) في مدنهم الكائنة على طريق القوافل الممتدة من ابواب (كاثاي) الشمالية الى الغرب مسيطرين على ما يمكن لنا نعته بميزان القوة. ولذلك ذهب (تيموجين) الى (طوغرول) خان الذي نعتاد بـ(برمسته‌رجون) مقترحا عليه الحلف. وهو يرى الآن ان المغول اصبحوا من القوة بمكان يجدر بهم التحالف، والوفاء بما يقتضيه من العهود عليهم اذ قال :ـ

«لا يمكن لي العيش دون ان يلحقني الاذى الا بمعونتك يا والدي ! كما لا يتم لك العيش بسلام دون صداقتي الصادقة اليك . ان اخوتك المزيفين وابناء عمومتك سيستولون على بلادك، ويقسمون مراعيك بينهم . واما ولدك فمجرد عن البصيرة ، وهو لا يدرك هذه الامور الآن. ولكنه سيتجرد من القوة ايضا ، وسيفقد الحياة اذا انتصر اعداؤك . والطريقة الوحيدة المثلى للمحافظة على سلطاننا ، وصيانة عيشنا ، هو الحلف الذي لا تنفصم عراه . ولما كنت ولدك ايضا ، فيمكن لنا تسوية الامر بيننا لصالحنا».

وقد كان من حق (تيموجين) ان يطلب التبني من الخان الشيخ . فرضي (برمسته‌رجون) بالاقتراح وقبله . وقد كان شيخا عجوزا، وفي نفسه حب الى المغولي الفتى .

وفى (تيموجين) بوعده وعهده ، فأرسل ارتاله الجرارة الساخطة لمعاونة الرئيس المقهور ، اذ طردت العشائر الغربية واغلبهم من المسلمين والبوذيين الـ(قارا ايت) من ارضهم ومدنهم فأثاروا أزاءهم عداء دينيا شديدا بين الـ(قارا ايت) المسيحيين ، الشامانيين .

و(تيموجين) كحليف للـ(قارا ايت) جرب للمرة الاولى السياسة الحكومية بين أمن وحذر . فالفرصة ، كما رآها، كانت فرصة نادرة باهرة ففى داخل السد العظيم أفاق امبراطور (كاثاى) الذهبى من غفلته ، وتذكر غارات تاتار بحيرة (بوويار) الذين اقلقوا حدود مملكته واثاروا الاضطرابات حولها ، فقرر ان يقود بنفسه حملة عظيمة الى ما وراء السد لينزل العقاب بالمغيرين ؛ وقد ارعب هذا القرار نفوس رعيته . وفى الحقيقة انه ارسل قائدا كبيرا مع الجيش الكاثائى على التاتار، وقد تراجع على عادته، وعاد سالما دون ان يمسه الضر، وان يتكبد عناء. ولما كان اغلب الجند الكاثائى من المشاة فلم يقدروا على الاتصال بالعشائر الرحالة ومنازلتها.

لقد وصلت بشائر هذه الحملة ونتائجها الى (تيموجين) فأنتهزها فرصة واوفد رسله على ظهور الجياد مسرعين الاسراع كله فى اجتياز السهول . وجمع شمل عشائره وارسل الى (برەستەرجون) يذكره بحلفه القديم وبأن التاتار هم العشيرة التى قتلت والده . فلبى الـ(قارا ايت) طلبه وسارت الحملة المختلطة وأغارت على التاتار الذين لم يتح لهم الانسحاب لوقوع الكاثائيين وراءهم.

وهذه المعركة التى اعقبت الاولى أبادت قوة التاتار ، واضافت عددا من الاسرى الى القبائل المنتصرة ، كما ومنحت الفرصة الى قائد الحملة الكاثائى لينسب كل ما حدث من الظفر لنفسه. وقد نال ما اراد، فمنح (برەستەرجون) لقب (وانغ خان) اى سيد الملوك كما لقب (تيموجين) بـ«القائد عدو الثوار» ـ وهذه لم تكلف (كاثاى) مالا قل او كثر الا مهد فضة مغطى بنسيج ذهب، اهدى الى (تيموجين). والمعتقد ان المغولى المحارب

البطل قد استغرب اللقب والهدية على حد سواء . ومهما كان الامر، فالمهد الذى لم ترد البوادى من قبل، عرض للانظار فى خيمة الخان.

* * *

والتحق الآن بالارتال الجارفة محاربون آخرون. واصبح (تيموجين) يشاهد ابناءه يصحبون (جه‌به‌نويون) سيد السهم ، الذى اعتاد الآن ـ عن ضعف فى الطبع ـ لبس حذاء من جلد الفنك ودرع فضة سلبهما من كاتائى متجول ؛ وهو مرشد بارع للنجل الاكبر (جوشى) ـ الضيف ـ المولود تحت ظل ، والعبوس الساخر ، والباسل الذى يفرح لبسالته الخان ويسر .

وصحب (تيموجين) فى نهاية القرن الثانى عشر، أهل بيته فى حملة صيد عند الانهار نحو اراضى الـ(قارا ايت). فنشر خيالته فى دائرة واسعة. وطاردوا الكثير من الايائل والغزلان وغيرها من القنيص الوديع وهم يضيقون نطاق انتشارهم ويرمون النبال والاسهم الى ان قضوا على كل حى ضمن منطقة الصيد. وهكذا يصطاد المغول دون مغازلة او تفنج . . .

وكانت الـ(كى‌بيت كا)ت وعجلات الجمال تنتظرهم فى مكان ما فى البادية. وعلى اثر رجوع القنيص حلوا أثيرة النيران، ونصبوا هياكل البيوت واسدلوا ستائر اللباد عليها قويا واوقدوا النار. وافرزوا الكثير من القنيص لاهدائه الى (طوغرول) الشيخ، وهو الآن سيد الملوك. ولكن الـ(قارا ايت) أخذوا يتبطرون على المغول، فاغتصب رجال سيد الملوك حصة الاسد من الصيد التى تعود حقا الى رجال (تيموجين) ؛ وعلى (تيموجين) ان يتحمل الجريرة .

ان اعداء (تيموجين) فى بلاد الـ(قارا ايت) لكثيرون. وهم من سلالة (بوورجى‌كون) الميالين الى سيد الـ(قارا ايت)، وقد أرادوا انتزاع السلطان من (تيموجين). وهذا هو الداعى لذهاب المغولى والاجتماع بوالده فى الحلف، حيث اتفقا فيما مضى على ان لا يناوىء الفريق الواحد الآخر، عند حدوث الخلاف بينهما ؛ بل عليهما ان يجتمعا ويدرسا القضايا بهدوء وسكينة حتى تتجلى الحقيقة لهما.

مرت على (تيموجين) الكثير من التجارب القاسية. فهو يتوقع نشوب الحرب عليه عند موت سيد الملوك . الا ان هنالك الجماعات من المحاربين الـ(قارا ايت) المنحازين اليه . وقد حدث ان رفض حرس سيد الملوك الخاص القبض على خان المغول حين حرضهم اعداؤه عليه. وقد كلف الـ(قارا ايت) المغول التزاوج بينهم وهيئوا عروسا الى (جوشي) من بين فتيات عوائل رؤسائهم .

وبقي (تيموجين) في معسكره متحذرا من الـ(قارا ايت) ، وعلى مدى امين منهم ، وارسل رجاله قبله ليتأكد من سلامة الطريق .

ولكن لم يرجع من رجاله الا اثنان هما من رعاة الخيل جاءآ حضرا الى المضرب ليلا ومعهما اخبار الـ(قارا ايت) ، وكلها أخبار توعد وشر . .

فأعداء (تيموجين) في الغرب هم (جاموكا) الداهية ، و(تووكابك) رئيس الـ(مەركيت) الابطال وابن رئيس الملوك واعمام (تيموجين) وكلهم قرروا القضاء عليه، واختاروا من بينهم (جاموكا) «كوورخانا» رئيسا كما واجبروا سيد الملوك ان ينضم بقوته اليهم. لقد كانت فاتحة الزواج خدعة، كما كان يتوقعها (تيموجين) .

وهكذا نراه قد فشل في سياسته الادارية . ويظهر انه كان يعمل لاشغال الـ(قارا ايت) في الحروب مع العشائر التركية الغربية، في وقت يكثر فيه من قوته في الشرق ويحتفظ بالـ(وانغخان) حليفا له الى ان تصبح قبائله الشرقية كفية في القدرة على المناضلة. وسياسته هذه سياسة حكيمة، الا ان خدعته اصطدمت بدهاء اعظم، وقد منى بالخيانة الآن .

لقد أخبره الراعيان ان الـ(قارا ايت) يقتربون من معسكره ، وهم يقصدون مباغتته ليلا ، ويرومون صرعه بالسهام في خيمته.

وقد كان موقفه هذا موقف قنوط ويأس، اذ انه يعلم ان الـ(قارا ايت) لابد ان يكونوا متفوقين عليه عددا. وكان عليه ان ينقذ ما امكن من عوائل اتباعه . وما كان بصحبته الا ستة آلاف من المسلحين ـ وقد جاء في بعض

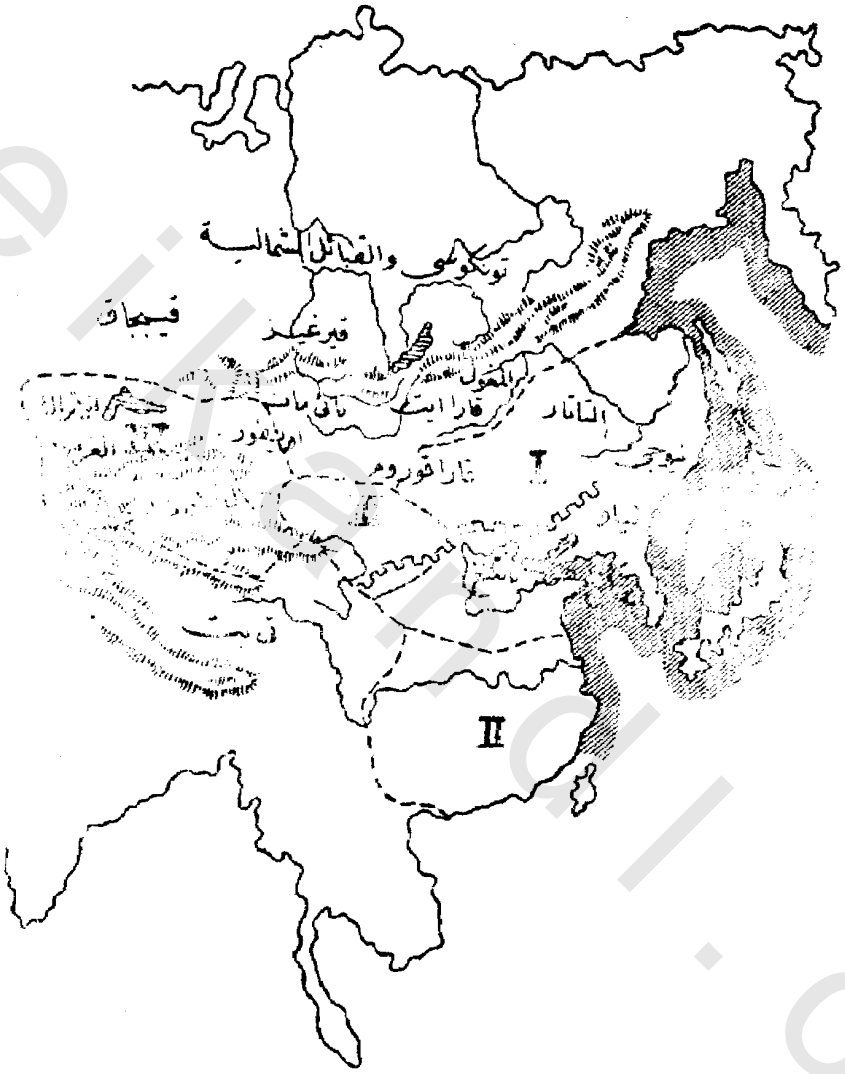

آسيا الشرقية، في اواخر القرن الثاني عشر

I. امبراطورية الصين II امبراطورية الـ(سه‌نغ)،

III مملكة (هه‌يا) IV امبراطورية كاتاى السوداء

obeikandl.com

المراجع ان قوته كانت اقل من ثلاثة آلاف مقاتل ـ اما هو فقد شعر بالخطر ، ولكنه لم يضع لحظة واحدة سدى دون ان يعمل بها .

ارسل حرس خيمته الخاص الى انحاء المضرب، فانهض النائمين وانذر القادة وابعد الاحداث الرعاة على طريق الانسحاب، وسير المواشي راجعة قبيل الفجر على ان تتشتت في تقهقرها كثيرا وتتبعثر على قدر المستطاع ؛ حيث لا وسيلة للنجاح بغير ذلك. واسرع رجال الـ(اوردوو) في ركوب الجياد الجاهزة لديهم على الدوام، كما واسرعوا في اركاب نسائهم في عجلات الجمال الخفيفة وفي تحميلها بامتعتهم وصناديقهم . وسار الرتل العميق راجعا الى مواطنه دون ضوضاء او ضجيج او جدل .

اما الخيام وعجلات الثيران الثقيلة فتركها في اماكنها كما كانت. وافرز بعض الرجال ومعهم الجياد الاصيلة القوية لايقاد النار وادامة لهبها عالية، ثم تراجع هو ومعه اشجع رجاله ببطء لستر الانسحاب وحمايته . ولا مفر الآن من العاصفة وهي تقترب تحت جنح الظلام.

ساروا مسافة ثمانية او تسعة اميال نحو مجموعة تلول يمكن لرجاله الاحتماء بها اذا اضطروا على الانفتاح. وبعد ان عبر جدول ماء اوقف فرسانه عند مضيق قبل ان ينهك التعب الخيل.

وفي الوقت ذاته اكتسح الـ(قارا ايت) المعسكر المهجور قبل انبثاق الشمس، وخرقوا خيمة اللباد الابيض ـ خيمة الخان ـ دون ان ينتبهوا الى سكون المكان وهدوئه ، وخلوه من المواشي، والى خلوه من اللواء. ففتروا قليلا وكانت فترة الحيرة والمشاورة.

ان الثيران الملتهبة جعلتهم ان يعتقدوا بان المغول لا زالوا في بيوتهم . ولكنهم عندما علموا بان الخيام هجرت وما زال فيها الابسطة والاوعية، وحتى السروج الاحتياطية وزقاق الحليب المخمر، ظهر لهم انهزام المغول خائبين مشتتين . فالأثر العريض الممتد الى الشرق واضح لا يسترد الظلام، فوقعت عليه من ثورها قبائل الـ(قارا ايت) مطاردة. وغارت حضرا ووصلت سفوح التلال بعد الفجر وغيوم النقع تلاحقهم. وكان (تيموجين) يراقب تقدمهم ،

فرأى انهم قد تبعثروا فى غارة سريعة ، وانتشروا والخيول السباقة تقدمت غيرها من الخيول المتوانية.

هذه فرصة انتهزها (تيموجين) ولم يفضل الانتظار اكثر من ذلك فى المضيق، بل قاد مجاربيه بحملة منظمة وبجياد استعادت قوتها بعد راحة، فعبر الجدول وشتتت نفيضة الـ(قارا ايت) ثم جمع الشمل ورجع واستند على الارض المتموجة المعشوشبة ساترا انسحاب الـ(اوردوو). ثم لحق قادة سيد الملوك، بميدان المعركة واعاد الـ(قارا ايت) تنظيمهم ؛ وبدأت معركة الابادة الشعواء .

لم يتحرج موقف (تيموجين) من قبل مثل هذا الحرج . فهو يفتقر الى بسالة خارقة من رجاله، وان بطء قافلة العوائل فى سيرها ماثل امامه. وهو الآن بعيد من عشيرتى (اورووت) و(مانهووت) اللتين تؤلف حياته الثقيلة من رجاليها، وان قوة الرجال الذين معه لا تسوغ له القيام بهجوم جبهى ، فاضطر الى تخفيض عددهم باحتلاله ارضا منحته بعض المناعة الطفيفة، وهذا يعنى ان ذلك هو البقية الباقية فى كنانة المغولى من السهام. وعندما اقتربت الشمس من المغيب وكاد ان ينتهى النهار تجده ينادى احد اخوته فى الحلف (غووئيل دار) حامى اللواء، ورئيس الـ(مانهووت) ويأمره ان يلتف حول الـ(قارا ايت) فيحتل تلا الى وراء يسارهم، ويحتفظ به. وكان اسم ذلك التل (غووب تا).

واجابه (غووئيل دار) الذى انهكه تعب النضال قائلا. «ايها الخان، اخى ! سامتطى اجود خيلى واشق صفوف من يناضلنى واركز لواءك ذا ذيول الياق على (غووب تا)، مثبتا لك شجاعتى. واذا مامت فاعطف على اولادى ، وارعهم لى وان جاء اجلى فكل شىء عندى سواء . .» وهذه الحركة الالتفافية هى المناورة المستحبة لدى المغول . وهى الـ(تووليووغما) او «كسح اللواء» اى الاحاطة بجناح العدو ، والوقوع الى ورائه.

وبتضعضع قبائله، وتوغل الـ(قارا ايت) بين صفوفه، واقتراب حلول الظلام، لم يبق لـ(تيموجين) الا مجال التشجيع والجلد فى اواخر لحظات

النزاع. ولكن (غووئيل‌دار) الباسل وصل الى التل وركز اللواء فوق قمته ، واحتفظ بالارض التى احتلها. وهذا مما ردع الـ(قارا ايت) وكبح جماحهم وعلى الاخص بعد ان اصيب نجل الـ(وانغ‌خان) بسهم فى وجهه.

وعندما غابت الشمس تراجع الـ(قارا ايت)، لا المغول قليلا فى ميدان القتال . ولم ينتظر (تيموجين) الاستر انسحاب (غووئيل‌دار) وجمع جرحاه من ابطاله، ومن بينهم نجلان من انجاله. فركب هؤلاء على ظهور جياد مسلوبة من العدو ، وقد ارتدف بعضهم الخيل ، ثم انسحب مسرعا نحو الشرق . اما الـ(قارا ايت) فلم يستأنفوا المطاردة الا فى اليوم الثانى .

وكانت هذه أشد معارك (تيموجين) وقد خسرها ، ولكنه لم يعرض نواة قبائله الى الدمار ، وهو لا يزال حيا ، كما وانه صان الـ(اوردوو).

وقال (وانغ‌خان) فى هذه المعركة . «اننا حاربنا رجلا كان يجب علينا ان لا ننازعه . »

وان أساطير المغول لا تزال تردد كيفية حمل (غووئيل‌دار) اللواء الى (غووب‌تا).

ومن مقتضيات الحياة فى البوادى، انهم أبان انسحابهم الطويل المدى ، يأخذون بتطبيب جراحهم بلحسها وهم على جيادهم الهزيلة المنهوكة القوى. أجل، انهم طوقوا الدوائر لقنص الريم والغزلان فاصطادوا منها ما اصابت سهامهم . وليس الشغف بالصيد هو الدافع الوحيد لهذا الامر ؛ ولكن الـ(اوردوو) يحتاج الى القوت ، والقوت يجب ان يجمع.

الفصل السادس

(برده ستدرجوده) يموت

كانت النتيجة المباشرة لانتصار الـ (قارا ايت) تعزيز الحلف ضد (تيموجين). فرؤساء العشائر الرحل يميلون كل الميل للتقرب من القوى المنتصر. وهذا معناه اتقاء الشر من جهة وجلب المغنى الوفير من جهة اخرى.

ارسل (تيموجين) كتابا فصيحا الى سيد الملوك يلومه، ويوبخه فيه قائلا :—

«ايها الخان ! يا والدى !، الم اوفد اليك ابطالى الاربعة ليشدوا ازرك، والاعداء يطاردونك ويلاحقونك. الم تأتنى ممتطيا جوادا اعور، وانت رث الثياب، وقد هزل منك الجسم اذ كان قوتك لحم الضأن وحده؟ او لم اعطك الكثير من الاغنام والخيل ؟.

«اغتصب رجالك فيما مضى اسلاب معركة هى لى، ثم انك فقدتها اذ امست طعمة لاعدائك، ولكننى استرجعتها بخيلى ورجالى. وعند النهر الاسود اقسمنا الا نصغى الى وشاية الواشين والمفرقين بيننا، بل ان نجتمع ونبحث فى الامر. وانتى لم اقل «ان حصتى طفيفة، وانتى اطلب المزيد».

«فاذا انكسر دولاب عجلة ثور فالثيران لا تطيق التقدم. الم اكن انا دولاب عجلتك ؟ فلم تغضب على ؟ ولماذا تهاجمنى الان ؟».

وانا نلمس فى هذه الكلمات روح الازدراء والاستخفاف . وفى الحقيقة ان هذا اللوم موجه الى الرجل المذبذب المتردد الذى لا يعرف لرأيه وزنا، ذلك هو (برده‌ستەرجون) الذى ازدرى به (تيموجين) بتعبير راكب حصان اعور.

شرع (تيموجين) فى اصلاح الامور وتحسينها بكل ما لديه من عزم وقوة. وارسل الرسل الى العشائر المجاورة، ولم تمض مدة من الزمن الا وخانات منطقته والخانات المجاورون قد جثوا عند جلد الحصان الابيض لخان

المغول، وقد جثوا على عاداتهم المألوفة، ومعاطفهم الطويلة مربوطة باربطة مزوقة، ووجوههم المتجعدة النحاسية تلوح خلال دخان نار الخيمة المتصاعد. وهؤلاء هم، يؤلفون ديوان شورى الخان.

وتكلم بدوره كل من الـ(بوورجى كوون) الرجال ذوى العيون الزرق، الذين ذاق الكثير منهم ذلة الانكسار من ايدى (تيموجين). واراد البعض منهم ان يستسلموا الى الـ (قارا ايت) الاقوياء ويخنعوا الى سلطان (برەستەرجون) ونجله. اما الابطال الشجعان منهم فرفعوا اصواتهم طالبين الحرب ورغبوا فى تقديم عصا القيادة الى (تيموجين) وهذا ما اقره الديوان.

وقال (تيموجين) عند قبوله العصا، ان اوامره يجب ان تطاع بين كل القبائل. ويجب ان تمنح له سلطة معاقبة من يستحق العقاب «لقد اعلمتكم فى بادىء الامر، بان البلاد المحدودة بين الانهر الثلاثة يجب ان يسودها سيد واحد. ولكنكم لم تدركوا ما قصدت، والان عندما خشيتم بطش سيد الملوك بكم كما بطش بى، اخترتمونى قائدا لكم. فقد وهبتكم الاسرى والسبايا والنساء والبيوت والمواشى. اما الان فانى سأحمى لكم موطن اجدادنا واصون عاداتهم».

انقسمت (كوبى) فى خلال الشتاء الى معسكرين متخاصمين. وقد بدأت القبائل فى شرق بحيرة (بائى كوول) تتسلح لمناوأة الاتحاد الغربى. وفى هذه المرة قبل ان تذوب الثلوج فى الوديان كان (تيموجين) اول من توغل فى الميدان، وزحف ومن تحالف معه وبدون سابق انذار على معسكر الـ (وانغ خان).

والتاريخ ينبئنا بمخاتلة مضحكة من مخاتلات الرجل. لقد ارسل (تيموجين) مغوليا الى خطوط العدو متظاهرا بالشكوى والقسوة التى يجابههما ويعامل بهما، وليخبرهم بان غزاة المغول لا يزالون على مسافة بعيدة من المعسكر. ولكن الـ (قارا ايت) لم يكونوا بالسذج كثيرا، فارسلوا عدة فرسان على جياد مصطفاة مستصحبين ذلك المحارب ليتأكدوا بانفسهم حقيقة ما اخبرهم به. وبعد مغادرتهم معسكر الـ(قارا ايت) بمدة قليلة كان ذلك المغولى هو الوحيد

الذى ينظر الى ما حوله منتبها يقظا. وقد لاحظ سارية لواء قبائل (تيموجين)على السفح الخلفى من مرتفع كانوا يتسلقونه. وهو يعلم ان حراسه فرسان ماهرون، فان شاهدوا العلم فروا مسرعين. فترجل واخذ يلهى نفسه بجواده، ولما سألوه عما يعمل اجاب :ـ

«ان حصاة فى حافر الجواد، اريد انتزاعها».

وفى الوقت الذى كان المغولى الفطن ينتزع الحصاة الموهومة من حافر الجواد ظهرت نفيضة (تيموجين) على المرتفع واسرت حرس الـ(قارا ايت) وبدأ الهجوم على معسكر (وانغ خان)، وشرع النضال المرير.

وعند المساء، انكسر الـ(قارا ايت) شر كسرة وفر (وانغ خان) واولاده وهم مثخنون بالجراح. ودخل (تيموجين) على صهوة جواده المعسكر المحتل، ووزع بين رجاله ثروة الـ (قارا ايت) وأسلابهم، ومنها السروج المنجدة بالحرير الملون، والجلود الحمر الناعمة، والسيوف والنصول، والاوانى الفضة واقداحها. فهو لا يطمع بمثل هذه الاشياء، وهى لا تنفعه. لقد كانت خيمة الـ (وانغ خان) مسدلة بستائر النسيج المذهب، فأهدى كل هذه الستائر الى الراعيين اللذين انذراه بتقدم الـ(قارا ايت) فى تلك الليلة عند (عووب تا).

ثم عقب الـ(قارا ايت) واحاط بهم بمحاربيه، وامنهم على حياتهم اذا استسلموا قائلا :ـ «ان الرجال المحاربين مثلكم الذين قاتلوا فى سبيل سيدهم، انما هم الابطال تعالوا وانضموا الى ابطالى، واخدمونى !».

التحقت فلول الـ (قارا ايت) به، وانضمت تحت لوائه، ثم اندفع فى الصحراء نحو عاصمتهم (قاراقوروم) اى الرمال السوداء.

وبعد مدة اسروا ابن عمه (جاموكا) الداهية، وقادوه الى مجلسه. فسأله (تيموجين) :ـ

«ما الذى تنتظره منى يا (جاموكا) »؟ فأجابه دون تردد او وجل :ـ

«ان الذى اتوقعه منك، هو ما تتوقعه منى لو اتيح لى اسرك. وهو الموت البطىء، وقد عنى بالموت البطىء التعذيب الصينى فى قطع الاوصال

قطعا متتاليا حيث يشرعون به فى اليوم الاول بتتر مفاصل المختصرين ثم يتابعون البتر حتى يقضوا على الأوصال والاطراف.

ومن البداهة ان سليلى الـ (بوورجى‌كوون) لا يفتقرون الى الجلد واحتمال التعذيب. الا ان (تيموجين) اتبع عادة شعبه التى تمنع سفك دماء رئيس رفيع النسب، فأرسل (جاموكا) ليشنق بوتر قوس حريرى، او ليخنق بين اللباد الثقيل.

و (برەسته‌رجون) الذى دخل هذه الحرب مرغما، فر يائسا الى ما وراء موطنه فقتله محاربان من عشيرة تركية. ويقول لنا التاريخ ان جمجمته رصعت بالفضة ووضعت فى خيمة هذا الرئيس تعظيما واكراما له. اما ابنه فقتل كقتلة ابيه.

وقد ينتظر من رئيس بدوى ان يقنع بثمار ظفر مثل هذا الظفر. فان نتائج حروب العشائر الرحل وانتصاراتهم على وتيرة واحدة على الدوام، هى جمع الاسلاب ثم التماهل والتقاعس عن متابعة الحرب، او الشغب والنزاع، وتجزئة المملكة الى اجزاء.واقطاع اجزاء . ولكن (تيموجين) قد برهن على انه ذو سجية تختلف عن سجايا غيره من القبليين. لقد اصبح الآن يملك نواة مملكة فى بلاد الـ(قارا ايت) الذين كانوا يحرثون الأرض ويزرعونها ويبنون المدن ويشيدونها. وجدران مدنهم وان كانت فى الحقيقة من الطوب وسقوفها من القش، الا انها ذات مساكن حضرية عامرة. وقد بذل (تيموجين) كل ما فى وسعه لاستقرار الـ (قارا ايت) واطمئنانهم بتحسين العلاقات معهم. ومن ثم وجه غزواته الى انتصارات وظفار أخر ، دون ان يفسح المجال للتأخر عنها قيد ذرة. وقد قال لابنائه :ـــ

«لا تتجلى قيمة العمل، الا بمتابعته حتى النهاية».

وبعد ثلاث سنوات من المعركة التى نال من بعدها السيادة على (كوبى) اندفع بفرسانه الاشداء فى وديان الاتراك الغربيين الـ (نائى‌مان) والـ (اويغور) ذينك الشعبين المثقفين الثقافة الراقية. لقد كانا عدوى (برەسته‌رجون) ولكنهما قد يتحدان معه لمناوأة(تيموجين)ولذلك لم يفسح لهما المجال ليدركا ما

يخبىء لهما الدهر. واخذ قادته يجولون ويصولون فى الاصقاع الممتدة من سلاسل الجبال البيض فى الشمال الى محاذاة السد العظيم، وفى مدينتى (بيش بالووغ) و (خوتهن) القديمتين.

ولماركوبولو قول فى (تيموجين) فى هذا المقام :ـ

«انه عندما كان يستولى على منطقة ما، لم يكن يؤذى سكانها، او يعبث بهم او بما يملكون، بل كان يبقى وينصب البعض من رجاله بينهم، ويقود البقية من قوته للاستيلاء على مناطق اخرى. وعندما يشعر المغلوبون بحسن حمايته وصيانته لهم ازاء الغير، ويطمئنون من عدم تعرضهم الى اى جور او ضرر منه، ويدركون عظمة امرته، وعدل سلطانه يلتحقون به من تلقاء انفسهم، وبقلوب مطمئنة، ويصبحون من اتباعه الصادقين. وهكذا بعد ان جمع حوله الجموع الغفيرة التى ملأت الارض، بدأ يفكر فى الاستيلاء على قسم اعظم من العالم...»

وما كان نصيب اعدائه القدماء، بالنصيب الذى يغبط عليه. اذ انه بعد ان يحطم قوة سلاح العشيرة المخاصمة، يغير عليها بجنوده المغول فينتقون وجوه البيوتات الحاكمة ويقتلونهم، ويشتتون رجال القبيلة المحاربين بين قبائل يعتمدون عليها، ويختارون النسوة الحسان ازواجا لهم، ويسبون الاخريات ويتخذونهن اماء. اما الاولاد اليتامى او الذين فقدوا اباءهم فتتبناهم الامهات المغوليات، وتصبح مراعى القبيلة المغلوبة وقطعانها ملكا للغالبين.

لقد دون اعداء (تيموجين) حياته الى هذه المرحلة كما شاؤوا، وكما دفعتهم اليه رغبتهم. ولكن، المصائب والشدائد من الجهة الثانية اكسبته قوة البدن، والعقل الراجح الذى كان نبراسا له يدله بالغريزة على القيام بالاعمال الصائبة. اما الان فقد اصبح قويا القوة الكافية لشن الغارات لمصالحه ومنافعه. وان تغلبه على اول اعدائه الذين جابههم فى الوغى، برهن على انه ابن بجدتها.

لقد اصبح يتوغل فى اصقاع العالم وفى طرق قوافل قديمة العهد وفى مدن آسيا المركزية، وكل ذلك مما اثار فى نفسه الغرابة والحيرة. وقد شاهد بين اسراه الرجال المرتدين اللباس الوثير، والمستقيمين فى سلوكهم واطوارهم؛

الامبراطور الصينى (كيەن ــ لوونغ) يزور مقبرة اجداده. العجلات والمعدات الاخرى تصور بعض التصوير لما استعمل منها فى عهد جنكيزخان

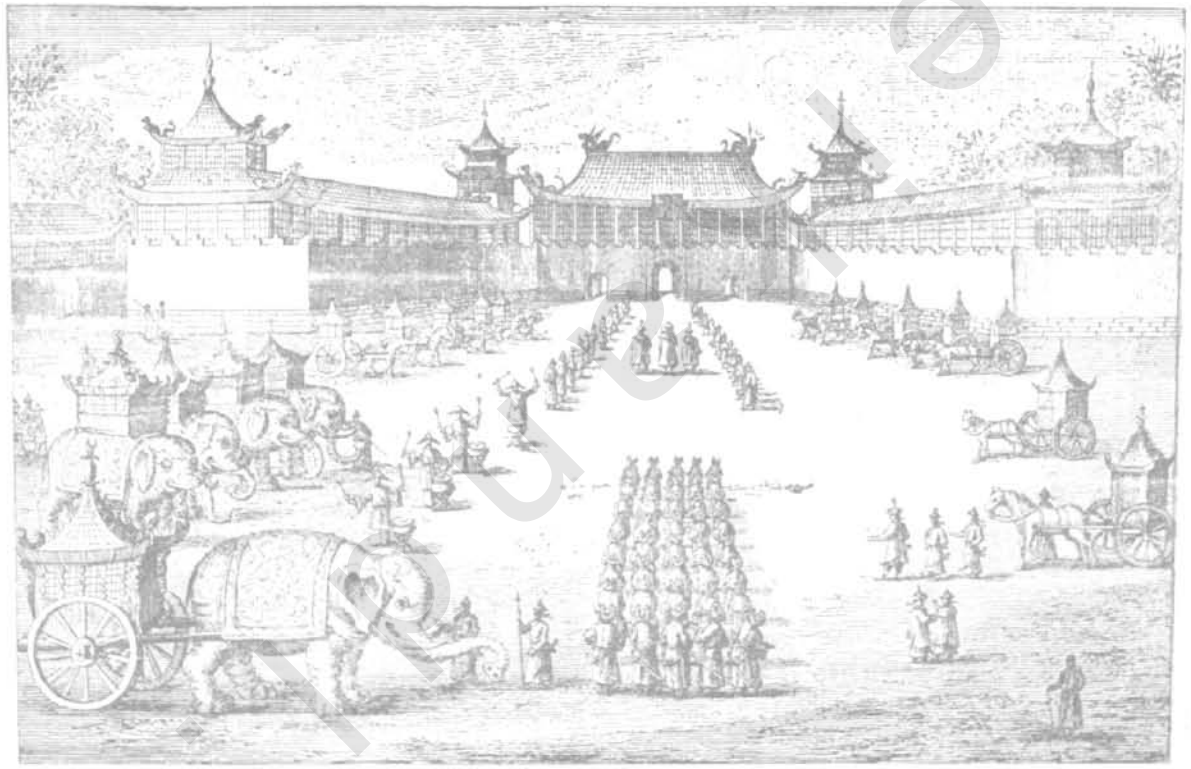

مراسم مقابلة رسمية فى بلاط (كاثاى) . يبين فكرة فنان فى القرن السابع عشر لعجلات الخيم او الـ(يورت)ات .

من غير المحاربين • وقد علم انهم من العلماء والحكماء، المنجمين العارفين بالنجوم، والاطباء الذين يحسنون الاستفادة من الاعشاب والحشائش كالراوند، والواقفين على اعراض الامراض النسائية وغيرها •

جيء باويغورى كـان فى خدمة احد الرؤسـاء المقهورين الى مجلس (تيموجين) وما زال ذلك الاويغورى يحمل غرضا ذهبيا صغيرا مصاغا صيغة عجيبة • فسأله المغولى :ـ

«لماذا لا تزال متمسكا بهذا ؟ » فأجابه الوزير الصادق :ـ

«رغبت فى ان احتفظ به حتى موت من ائتمننى عليه • فصدقه الخان وقال :ـ

«انت تابع صدوق، ولكن قد مات سيدك • واصبحت بلاده وما يملكه ملكا لى • والآن خبرنى ما نفع هذا الذى تحمله ؟» • فأجابه الاويغورى :ـ

«عندما كان يرغب سيدى فى جمع الفضة او الحبوب، كان يفوض الامر الى احـد رعايـاه • والضرورة تقضى ان يؤيـد اوامره بختمه ، لكى يبرهن المفوض اليه بالامر على ان ما يطلبه هو من امر سيده • • • »

فعلى ذلك ، امر (تيموجين) بصنـع ختم لـه ، فصنعوا له ختمـا من حجر اليشب وعتق الاسير الاويغورى ، ومنحه منصبا فى ديوانه ، وامره ان يعلم اولاده الكتابة الاويغورية وهى نوع من الكتابة السريانية التى يحتمل ان الرهبان النسطوريين نقلوها اليهم فى ازمنة غابرة •

اما ابطاله الذين شدوا ازر الخان فى بعض الازمات فكان نصيبهم من المنح عظيما ؟ وقد لقبهم بلقب (تارخـان) ورفعهم فوق غيرهم ، فأصبح لهم الحق بالدخول الى سرادق الخان متى شاءوا ومن غير مراسيم، وفى اختيار حصتهم من الاسلاب قبل غيرهم بعد المعركة، كما استثناهم من جميع الاعشار • وفوق كل ذلك لقد اصبحوا ممن لا يخطئون ، فهم معفون من عقاب القتل تسع مرات متواليات • واذا ما رغبوا فى ارض امتلكوها • ويرث امتيازاتهم هذه احفادهم الى تسعة اجيال •

والذى كان يشغف عقول الرحل ؟ هو انه لا شيء الذ واشهى فى الوجود من ان يصبح المرء تابعا الى (تارخـان) • لقد الهب النصر الغرور فى نفوسهم• وتغلبت عليهم نشوة تلك السنوات الثلاث فى انحاء البلاد الجديدة • ولكن خوفهم من خان المغول اوقفهم عند حدهم دون اقتراف الاجرام •

والتف حول الرجل المنتصر اوحش ابطال آسيا بكاملها، وهم محاربو الاتراك ـ المغول من البحر الى (تيـانشـان) حيث حكم (كووجلووك) (كاثاى) السوداء • ولقد تناست العشائر فى تلك الايام الثارات الكامنة فى النفوس • واستقر البوذيون والشامانيون، وعبدة الشيطان، والمسلمون ، والمسيحيون النسطوريون استقرارا أخويا وهم يرقبون حوادث الايام•

والليالى حبالى، والذى ولدته هو ان خان المغول سماسموا يزبه اجداده واجتاز به حدودهم • فجمع الـ(قورولتاى) ليختاروا رجلا واحدا ليحكم شعوب آسيا العليا بكاملها•، أجل، ليختاروا امبراطورا • •

واوضح لهـم بـان عليهم ان ينتخبوا رجـلا من بينهـم ليسيطر على الآخرين • فبعد ماحدث فى السنوات الثلاث الاخيرة، كان من الطبيعى ان يقع اختيار الـ(قورولتاى) على (تيموجين) بذاته • وقرر الـ(قورولتاى) علاوة على ذلك، ان يلقب الخان لقبا يليق به • فتقدم احد المنجمين وقال بان اللقب الجديد يجب ان يكون : «جنكيزخاقان» : اى اعظم الامراء، وامبراطور الناس كلهم •

الفصل السابع

الـ (ياصا)

اجتمع الـ(قورولتاى)، الديوان فى سنة ١٢٠٦ ، وصرح فى السنة ذاتها عامل (كاثاى) محافظ الاهوار الغربية، المكلف بادارة البرابرة القاطنين وراء السد العظيم وبجمع الضرائب منهم قائلا:ـ «بان السلام العميم يسود الممالك النائيه» وبعد انتخاب جنكيزخان رئيسا لهم وسيدا، اتحد الشعبان التركى والمغولى للمرة الاولى فى التاريخ من بعد عدة عصور.

وهم فى اوج تحمسهم لـ(تيموجين) او جنكيزخان كما اصبح الآن، اخذوا يعتقدون بانه لم يكن فى الحقيقة الا (بوغـدو) يا، او رسول الآلهة؛ وقد وهبته السموات القوة الخارقة. ولكن ليس هناك من قوة فى الوجود توقف هؤلاء القوم الرحل غير المنقادين لقانون عند حدهم وتكبح جماحهم . لقد عاشوا طويلا وقانونهم العادات العشائرية . والعادات تختلف باختلاف طبائع الرجال.

أما جنكيزخان فلديه لردعهم تشكيلاتـه العسكرية المغولية . وقـد تمرنوا عليها وبرز فيها اكثرهم . ولكنه صرح بانه قنن الـ(ياصا) الآن لادارتهم . والـ(ياصا) هى قوانينه المزيجة الموضوعة على ارادته وعلى انفع العادات القبلية.*

وقد صرح فيها بوضوح بانه يمقت السرقة والفحش مقتا خاصا، وعقاب صاحبيهما الاعدام. فاذا سرق سارق جوادا، فجزاؤه الموت. وصرح بانه يغضب اذا علم بولد لا يطيع ابويه، اوبأخ صغير يخالف امر أخيه الاكبر، او بافتقار الزوج الى الاعتماد على زوجته او بمخالفة المرأة لزوجها، او بتمنع الغنى عن اعانة الفقير او التقاعس عنها، او بعدم احترام المرؤوسين لرؤسائهم.

اما فيما يتعلق بالسكر الشديد ، فقال وفيما قال ضعف :ـ

*اصل الكلمة (دزاساق ـ Dzasak). وقد ذكرها مؤرخو العرب والفرس كـ (ياصاق) او (ياصا) ترخيما. من كتاب جنكيزخان لـ (ف. يان)ـ المترجم.

«ان الرجل السكران كالرجل المضروب على يافوخه، يفقد عقله وكفاءته . فاشربوا ثلاث مرات في الشهر الواحد لا اكثر، والافضل الا تشربوا ابدا . ولكن من الذى يحجم عن ذلك بالمرة . . ؟ ».

ومن ضعف المغول، فزعهم من الرعد. وفزعهم هذا سيطر عليهم سيطرة دفعتهم الى الارتماء في البحيرات والانهر لاتقاء سخط السموات ، عندما كانت تهب العواصف الراعدة الشديدة في صحراء (كوبى) . واقل ما يخبرنا به السائح الفاضل الاخ (رەب‌روكيز) هو هذا. اما ال (ياصا) فتمنع السباحة او مس الماء منعا باتا عند الرعد وهبوب العواصف.

وجنكيز خان كرجل يتصف بالشدة والعنف انكر على شعبه انغماسهم في القسوة المتناهية. فال (ياصا) حرمت النزاع والخصام بين المغول. ومن الجهة الثانية كان صلبا عنيدا. اذ قال : لاخافان الا جنكيز». واسمه واسماء ابنائه لا تكتب الا بماء الذهب، او الا تكتب مطلقا. وليس لرجال الامبراطور الجديد، ان يذكروا اسم الخان من تلقاء انفسهم.

وكموحد نشأبين شامانو (كوبى) السحرة المكارين، وضع قانونه وضعا عالج به الامور الدينية بسماحة. فاعفى به رؤساء الاديان الآخرين والعباد ومؤذونى الجوامع من الضرائب العامة. وفي الحقيقة كانت تعقب معسكرات المغول جماعات من الكهان والعباد بملابسهم المتضاربة الالوان، فاللاما الصفر والحمر يترنحون وبايديهم دواليب العبادة (٥) وقد لبس البعض منهم «بطرشين كهنوت ملون يضاهى قلنسوة الشيطان عند المسيحيين ». وهذا ما قاله الاخ (رەب‌روكيز) . ويخبرنا (ماركوبولو) بان جنكيزخان كان يستدعى المنجمين قبل المعركة ليتكهنوا ويتنبؤا . فالمنجمون الـ(ساراس) يون خابوا في تنبؤاتهم. ولكن النجاح كان حليف المسيحيين النسطوريين بكتابتهم على عصوين اسمى القائدين الخصمين، والقائهما ارضا لتقع الواحدة فوق الاخرى، وهم يرددون جهرا بعض الآيات من الزبور. وربما يكون جنكيزخان قد اصغى الى المنجمين. وقد اصغى بعد حين من عمره الى انذار المنجمين الـ(كاثاى)ين. ولكننا نرى انه لم يتغاض عنهم عن نتائج اى مغامرة يختلقونها.

والـ(ياصا) عالجت ببساطة قضايا الجواسيس واللواطين وشهود الزور والسحرة وجعلت عقابهم الاعدام.

والمادة الاولى من الـ(ياصا) تستحق الالتفات والاهتمام، اذ جاء فيها:ـ

«اننا نأمر بان يعتقد الناس كلهم بأله واحد، خالق السموات والارض. وهو المغنى المفقر. المحيي المميت كما يشاء المسيطر على الامور بقدرته»

هذا صدى من صدى تعاليم التسطوريين القديمة. ولكن (جنكيزخان) لم يصرح بهذا الامر، بين الناس اذ لم يرغب ان يضع الفروق والفواصل بين رعاياه، او ان يثير الخفايا من كوامن لهب المعتقدات .

وقد يصنف العالم النفسي ما تستهدفه الـ(ياصا) الى ثلاثة امور، : وهي الاطاعة الى جنكيزخان، ورابطة اتحاد القبائل ، ومعاقبة ارباب الخطيئات والذنوب عقابا صارما. والـ(ياصا) تمس الانسان لا ممتلكاته ، وهي لا تعد المرء مذنبا اذا لم يعترف بذنبه، الا اذا قبض عليه وهو متلبس بالجريمة . ويجب الا ننسى بان المرء بين المغول، وهم شعب امي، يؤخذ بقوله ويلزم عليه.

والرحل يعترفون في الغالب بذنوبهم عند اتهامهم بالجرائم على خلاف غيرهم من الناس. ولدينا الادلة والامثلة عمن ذهب الى الخان من تلقاء نفسه طالبا منه معاقبته لاقترافه جرما.

وفي السنين الاخيرة من عهد الخان، كانت اطاعته مطلقة لا تشوبها شائبة. ومثال ذلك : ان امرا صدر من الخان وبلغه مراسل عادي، يقضي على قائد فرقة، وهو على بعد آلاف الاميال من الديوان، ان يسلم القيادة الى غيره وان يعدم؛ وقد نفذه بحذافيره ومن توه.

«انهم اطوع الناس طرا الى اسيادهم. وهم يبجلونهم ويوقرونهم ولا يخونونهم في القول والعمل. ومن النادر ان يتنازع او يتشاحن او يجرح او يقتل بعضهم البعض. لا نرى اثرا للسراق والسلاب بينهم مطلقا. ولذلك نجد بيوتهم او عجلاتهم حيث يضعون فيها ثرواتهم وممتلكاتهم غير مغلقة. فلو شردت او ضاعت دابة من مواشيهم ووجدها احد تركها حيث هي، او جاء بها الى الضباط المسؤولين عن الشاردات من البهائم. وهم يتجاملون بينهم،

وبالرغم من قلة الزاد والمؤن عندهم فهم يتقاسمونها دون تكلف وشراهة. صابرين جد الصبر عند الشدائد والعوز . وتراهم وان جاعوا يوما او يومين يتغنون ويتمازحون. وفي الاسفار يتحملون مصاعب القر والحر من غير تذمر وتشك. ولا يتخلفون عن رفقائهم. وكثيرا ما يحتسون الخمر ولكنهم لا يتنازعون على الكؤوس، او من الكؤوس...»

هذا ما يخبرنا به الاخ الشجاع الـ(كاربي نى). والظاهر ان هذه الامور، او الخلال كانت من المباغتات الى السائح الغربي. اذ نراه يستمر ويقول :ـ

«والسكر من الامور المشرفة بينهم . فأذا شرب احدهم واجتاز حده وتقيأ عاد وكرر الشرب . اما سلوكهم ازاء غيرهم فسلوك المتكبر الفخور الذى لا يطاق . وهم مهما عاملوا الغير بعز وكرم فمعاملتهم هذه مزيجة بالازدراء والاستخفاف . اننا شاهدنا في ديوان الامبراطور دوق روسيا الاكبر، وتجل ملك بلاد الكرج وغيرهما من سلاطين ورجالات عدة. وكلهم مسلوبو الاحترام والوقار . وحتى ان التاتار الذين عينوا لخدمتهم، تجدهم يتقدمون هؤلاء الاسرى الشرفاء في اماكنهم في الجلوس بالرغم من حالتهم المنحطة .

«وهم ازاء الغير من الناس نزقون ساخرون، وخداعون الى حد لا يتصوره العقل؛ فان قصدوا ضررا او اذى خاتلوا وتكتموا فيه تكتما كليا كى لا يفسحوا المجال لاحد لاحباط مقاصدهم. وهم لا يقيمون لقتل غيرهم من الناس وزنا...»

ومن مبادىء الـ(ياصا) التعاون فيما بينهم، وامحاء الشعوب الاخرى . فلا يمكن جمع كلمة هؤلاء القبليين المتعطشين الى القتال، الموخزين من الثار القديم الا بطريقة واحدة . فأن تركوا وشأنهم لاتباع طرقهم القديمة في الحياة عادوا الى ما كانوا عليه من قتل بعضهم البعض، والمطاحنة لاجل الاسلاب والمراعي . اما الـ(خا ـ قان) ذو الشعر الاحمر فقد زرع الريح وانتظر ثمار الاعصار.

فأذا نظرنا الى ما قام به (جنكيزخان) بعد حين، نجد انه قد ادرك ذلك الامر فعلا. فهو نشأ وترعرع بين الرحل، وهو يعلم ان الطريقة الوحيدة المثلى لردعهم عن نحر رقاب بعضهم البعض لا تتحقق الا بتوجيههم الى رقاب الآخرين . لقد اراد ان يقود زمام الزوبعة فيحيدها عن (كوبى) .

والتاريخ يفتح على (جنكيزخان) كوة ينبثق منها شعاع نور فى هذا العهد . وذلك قبل ان تنتهى افراح الـ(قورولتاى) المديدة . انه وقف عند سفح (دەلى كون ـ بوولداق) الجبل الذى ظلل بلاده وموطنه ، تحت فىء اللواء الذى ذاع صيته الآن ، وفى قمة اللواء ذيول الياق التسعة البيضاء وخطب فى الـ(بوورجى كوون) والرؤساء الذين عاهدوه على اطاعته وعلى الموت فى سبيله وقال :ـ

«ان هؤلاء الرجال الذين يقاسموننى حلو المستقبل ومرارته، الاوفياء الذين يضاهى وفاؤهم معدن البلور البراق ، اود ان انعتهم بالمغول . وانى اريد تساميهم فوق كل ذى روح كائن فى هذا الكون . ..»

قال ذلك وهو يفكر فى توحيد كلمة تلك الجموع من الرجال الاشداء، وجعلهم بنيانا واحدا مرصوصا. فالـ(اويغور) العقلاء ذوو الاسرار الغامضة، والـ(قارا ايت) البواسل ، والمغول الـ(ياك كا) الصناديد، والتاتار المفزعون، والـ(مەركيت) الاشداء ، ابناء بوادى سيبريا الصبورون الهادئون ورجال الصيد والقنص ، وكل فرسان آسيا العليا، اجتمعوا والفوا امة عظيمة واحدة. و(جنكيز خان) رئيسهم .

اتحدت هذه القبائل فيما مضى تحت سلطان الـ(هيونك ـ نوو) الذين ازعجوا (كاثاى) بغاراتهم الى ان شيد السد العظيم لاتقاء شرهم . وهذا موجز قصة اتحادهم المنصرم . اما جنكيزخان فكان موهوب الفصاحة لاثارة الاحساس العميق فى نفوسهم . وهو لم يشك فى كفايته لقيادتهم.

لقد وضع امام اعينهم مشاهد النصر والظفار فى الاصقاع المجهولة. وبذل كل مالديه من الجهد لينظم هذا الحشد القوى وينفر به. فوضع الـ(ياصا) وتوسل بها. وحذر المحارب «الجندى» ان يخذل رفقاءه، رجال العشرة،

الحضيرة. كما حذر على رجال الحضيرة ان يتخلوا عن جريح منهم ويتركوه خلفهم، ومنع كذلك انسحاب او تراجع اى محارب قبل تراجع العلم من المعركة او الشروع بالنهب او السلب قبل سماح الضابط الآمر بذلك.

(لقد عولجت النزعة الكمينة فى نفوس الجنود الى السلب كلما تمكنوا منه بالقاعدة التى منحتهم حق اقتناء ما يعثرون عليه، بالرغم من وجود الضباط معهم).

ويذكر لنا الاخ (كاربى‌نى) الذى خالط المغول وهو المرجع الى قولنا، فى ان (جنكيزخان) لاحظ تطبيق هذا النص من الـ(ياصا) بدقة. وهو يصف المغول بقوله : «لا يتركون ميدان القتال واللواء مرفوع ولا ينسحبون عن موقع اذا احتلوه ولا يتخلون عن عدو دون ان يقضوا عليه . .»

ما كانت غزاة (جنكيزخان) جموع قبائل تحتشد كيفما اتفق، بل هم كالكراديس الرومانية كان لهم تنظيمهم الدائمى، ووحداتهم العشرية؛ من العشرة آلاف، أو الـ(تومان) ات، الفرق ـ ومن البديهى ان تكون فرق خيالة ـ ولهم قادة الجيوش، الاراخنه؛ مشراء الخان:ـ وعددهم احد عشر مشيرا منهم (سووبوتاى) المعصود و(موو هوولى) الشيخ المحنك و(جه‌به،نويون) المرعب.

وتخزن اسلحة الغزاة، والرماح والدروع الثقيلة والتروس فى المخازن تحت اشراف الضباط. ويعتنى بها وتنظف حتى يوم النفير واستدعاء المحاربين للمعارك وتوزع عليهم. ثم تجتمع الوحدات فيفتشهم ويستعرضهم الكراخنة. ومن ذلك نرى ان المغولى الفطن، لم يرغب فى ان يحصر فى نفسه قيادة مئات آلاف من الجنود الفلول وهم فى كامل اسلحتهم، مشتتين منبثين فى السهول والجبال فى مليون مربع من الاميال.

ولشحذ عزم الجيش أمرت الـ(ياصا) ان تنقضى ايام الشتاء، بين أول سقوط الثلوج القوى، وبين الرعى الاول، فى حفلات او حملات الصيد الكبيرة لصيد الايل والغزال وحمار الوحش السريع العدو.

وأمرت الـ(ياصا) ايضـا ان يجتمع الـ(قورولتـاى) فى الربيع على ان يحضره كبار القادة والضباط : «فاولاء الذين يتغيبون فى معسكراتهم ولا يحضرون لاستماع اوامرى ووصاياى، نصيبهم نصيب الحجرة المرماة فى البئر، او السهم المطلق بين القصب؛ فهم ضائعون.»

ولا ريب ان (جنكيزخان) تعلم الكثير من عنعنات الاجداد. وأخذ بالكثير من العادات المتبعة . الا ان تأسيس جيش دائم التنظيم من القبائل، كان من عمله وابداعه، والـ(ياصا) سيطرت على ذلك الجيش فى ادارته . اما سيطرة الاوساط القاسية فجمعته ووحدته . وابتدع (جنكيزخان) صنفا حديثا من الصنوف المحاربة وابقاه بامرته . وهو جموع الخيالة الثقيلة الشديدة الضبط القادرة على الحركة السريعة فى مختلف انواع الارض. ويحتمل ان الفرس والبرثيين قد اقتنوا الجموع الكثيرة من الخيالة، الا انهم كانوا مفتقرين الى كفاية المغول في الامحاء بالقسى، والى شجاعتهم العنيدة، المتوقدة.

ففى جيشه كان له صنف قادر على الامحاء السريع اذا احسن استخدامه، وكبح جماحه. وقـد عزم العزم الاكيـد على ضرب الـ(كاثاى) به ؛ تلك الامبراطورية القديمة المتمسكة بقدمها، المحصنة وراء السد العظيم.